باتريك موديانو

حتى لا تتيه في الحي

رواية

ترجمة: توفيق سخان

جائزة نوبل للآداب 2014

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ذات السلاسل
الكويت

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

حتى لا تتيه في الحي

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي

Pour que tu ne te perdes pas dans le quartier

Roman de Patrick Modiano

Editions Gallimard 2014, Paris France

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر الفرنسي

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين منشورات ضفاف

All rights reserved

Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme

d'Aide à la Publication Georges SCHEHADE, bénéficie

,du soutien du Ministère des Affaires Etrangères et Européennes

du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade

."de France au Liban et de l'Institut Français

حتى لا تتيه في الحي

رواية

باتريك موديانو

ترجمة: توفيق سخان

منشورات ضفاف
منشورات الاختلاف

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-02-4106-0

جميع الحقوق محفوظة

149 شارع حسيبة بن بوعلي

الجزائر العاصمة ـ الجزائر

هاتف/فاكس: +213 21676179

e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

هاتف بيروت: +9613223227

editions.difaf@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

منشورات ذات السلاسل
الكويت

E-mail: ths@thatalsalasil.com.kw
Web site:www.thatalsalasil.com.kw
@THATALSALASIL
@THATALSALASIL
thatalsalasilbookstore

الناشر: ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت - ص.ب: 12041 الشامية 71651
تلفون: 22466266/55
فاكس: 22438304

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

ليس بوسعي أن أمنح حقيقة الوقائع؛ بوسعي، فقط، أن أقدم ظلالها.

ستاندال

ما بين المبتدأ والخبر

أن يحيا المرء فمعنى ذلك أن يُصر على تحقيق ذكرى.

روني شار

جاء باتريك موديانو إلى العالم في الثلاثين من تموز 1945، يحمل أو تحمله نصوص تعكس ضياعا عاما وتردفه بضياع خاص تمثل في فقدانه لأخيه رودي في سن مبكرة وبعلاقة متوترة مع والده وحالة من التشرد النفسي والاجتماعي حاول حسب مفردات التحليل النفسي أن يشد عن طوقها بين طوايا نصوصه. فمنذ روايته الأولى الصادرة سنة 1968، "ساحة النجمة،" يحضر رودي عِلة للحكاية والعامل الأساس في رواياته التي تطرقت لمرحلة الطفولة. ومع قلة الإحالات إلى هذا الجانب المؤلم من حياته، فإن الروايات المتأخرة زمنيا من قبيل الأفق (2010) وعشب الليالي (2012) وحتى لا تتيه في الحي (2014) التي صدرت قبيل حصوله على وسام نوبل تحمل ندوب هذا الفقد الأول فيكون البطل في طفولته شخصا متوحدا يحيا تحت رحمة أشخاص كبار إما يعكرون صفو وجوده مثل جون بوسمانس الذي لا تربطه بوالديه سوى سجلات الحالة المدنية أو شخص تخلى عنه والداه وتؤرقه ذكريات الطفولة كما هو الحال بالنسبة لجون دراغان، بطل حتى لا تتيه في الحي. يحدث هذا اللقاء مرتين أو ثلاث. وكل مرة يحدث ذلك نجد أن صورة الابتزاز المادي هي الطاغية أو حالة من اللامبالاة والجفاء. نقرأ في رواية الأفق: "أخبرها بوسمان: "تصوري امرأة ورجلا في العقد الخامس من عمرهما. امرأة ذات شعر أحمر ونظرة حادة ورجل أسمر يبدو بمظهر رجل دين سابق. المرأة ذات الشعر الأحمر هي أمي، إذا ما صدقت سجلات الحالة المدنية."[1] وفي عشب الليالي ترخي هذه العلاقة المأزومة بظلالها على أجواء الرواية ليعود جون دراغان في رواية حتى لا تتيه في الحي ليثيرها مرة أخرى. نقرأ مثلا: "كان أبوه قد جاء ليبحث عنه في منزل فارغ، واستقلا قطار العودة إلى باريس. ماذا كانت تريد أن تقصد بـ "منزلك" على وجه التحديد؟ حري به أن ينقب في ذاكرته، فهو لا يملك أدنى ذكرى عما تدعوه اللغة المتداولة "منزله." كان القطار قد وصل، باكرا جدا في الصباح، إلى محطة ليون. وبعد ذلك، عرف سنوات طويلة، لا نهاية لها، من الإقامة في المدرسة الداخلية."[2]

إزاء هذا الضياع الشخصي نجد ضياعا عاما ميز فترة ما بعد الحرب الكونية الثانية. ها هنا يتبدى باتريك موديانو معنيا بالفواصل في هذا التاريخ الانساني، بالهوامش التي تؤسس لهذا المتن وهي تستعيده، "بالحكايات الصغرى،" بتعبير جون فرانسوا ليوتار، بعدما أبانت الحكايات الكبرى أو الإيديولوجيات السائدة عن إفلاسها. ومع أن التاريخ الأوربـي لا ينفصل البتة عن تواريخ

الشعوب الأخرى التي وقع له تماس معها، حرب الجزائر والاغتيالات السياسية على الأراضي الفرنسية وأزمنة سوداء كما خبرها عن كثب باتريك موديانو، فإن هذه الظواهر انعكست سلبا على الإنسان الأورب-ي فخلقت لديه شعورا بالفراغ، بالتيه، وإحساسا لا يفتأ يتصاعد بفقدانه للثقة بالنفس. هي أزمنة سوداء، كما تقر حنا آرندت "ليس لأنها تضارع فظاعات هذا القرن والتي هي فعلا جديدة على نحو مهول. لا تخلو هذه الأزمنة السوداء فقط من الجدة، فالأشياء النادرة، على العكس، لا وجود لها في التاريخ، ولو أنها ربما قد تكون مجهولة في التاريخ الأمريكي الذي يتوفر هو الآخر، سواء في الماضي أو في الحاضر، على حظه الوافر من الجريمة والدمار. بيد أنه يحق لنا حتى في الأزمنة الأشد سوادا ترقب بصيص من الضوء، وإن كان هذا الضوء لا يصدر عن النظريات والمفاهيم بقدر ما يجد مصدره في الضوء المتردد، المتهافت، وغالبا الواهن الذي يومضه رجال ونساء، في حيواتهم وفي أعمالهم، تقريبا في جميع الظروف وينشرونه على الفترة الزمنية التي هي حظهم من الحياة الدنيا."[3]

ولعل هذه السوداوية وهذا اللايقين انضويا تحت مسمى هَرم حمل اسم "ما بعد الحداثة" وجمع بين مسعى لتجاوز يقينيات الحداثة، والارتهان إلى خطاب شذري عانق روح الانهزامية التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية والارتياب من أي شكل من أشكال السياسة. فكان أن تجلت هذه الحساسية في أعمال أدبية لما لقبه ناقد فذ هو تزفيتان تودوروف "أطفال ماي 1968" يشكل عمادها الخصوصيات التالية: اللاتحديد، العصيان على العرض، العصيان على التمثيل، تفكيك السنة، اللاذاتية، التشذير، المفارقة، التهجين، الاحتفالية، العرض، المشاركة، البنائية والمحايثة. إن ما يجمع هذه الملامح العامة هو تنصيصها على كل ما هو مناوئ، كل ما يهدم الأساسات، كل ما هو مرن، وظرفي وانتقالي[4]. حسب إيهاب حسن، الناقد المصري الأمريكي الذي أوردنا خطاطته السابقة في توصيف ما بعد الحداثة، لم يعد هناك مكان لليقينيات، للتوابث أو نقط ميتافيزيقية للبداية.[5] بل على العكس، بات الاحتفاء بالهوامش، والانتصار لتلك المناطق المعتمة التي توارت عن الأنظار بفعل الأنوار الباهرة للحداثة. ومع ذلك، فإن عيب ما بعد الحداثة يكمن في موازاتها بين جميع الخطابات، بين جميع السرود، بين جميع الحكايات دون أن يحوز أي واحد منها على قصب الحقيقة. هنا يتساوى الجلاد والضحية، المستعمِر والمستعمَر، التاريخ الرسمي والتواريخ غير الرسمية فتضيع الحقيقة بين أحابيل اللغة والشطحات المهووسة لنصوص ترتهن إلى منطق يتبدى من خلاله النص مثل "كرنفال لفظي تكون فيه اللغة في إجازة من مهام الحياة اليومية الصاخبة. إن العمل اللغوي ينتج مشهدا لغويا، والمطلوب من القارئ أن يستمتع بذلك المشهد أو المنظر في حد ذاته بدلا من النظر إلى العالم من خلال اللغة. إن النص ينتج في الواقع عن الدالات وترك المدلولات تهتم بنفسها."

عمد موديانو إلى ضم هذه المكونات (الضياع العام والضياع الخاص) في ضفيرة واحدة (توليفة ما بعدحداثية) جعلت الكثير من النقاد يركزون على الجانب الذاتي أو الشخصي في هذه الروايات ويعتبرونها مجرد فصول من سيرة ذاتية لا تكتمل أبدا، سيرة تحكي حكايات الاحتلال النازي لفرنسا والشتات والأزمنة السوداء التي طبعت نهاية الحرب العالمية الثانية وما أعقبها من ظواهر تشكل أعطاب أو الجوانب المعتمة من الأنوار والحداثة الأوربيين. ولإن كان موديانو

يرجع المرة تلو المرة إلى فترات من الماضي، فإن هذا الرجوع يكون عادة سببا في الكثير من الارتباك والقلق بدل أن يحمل معه الكثير من الإضاءة. ومع أن حكاية تجربة ما هي، بالنسبة لموديانو، عمل "تخييلي،" أي عمل يخضع لإعادة الصوغ والتشكيل، فإنه يلجأ إلى واحدة من استراتيجيات ثلاث أو يمزجها معا. ينطلق الراوي من تجربة شخصية، حكاية خاصة، ويستشهد بمتن روائي آخر كما أنه قد يتوسل أيضا "بالذاكرة بالوكالة،" وذلك حينما يستلهم ذكريات الآخرين خلفية لرواياته بهدف تسليط الضوء على جوانب من هذه "الأزمنة السوداء،" وليكشف عن مآلات ومصائر الذات في علاقتها بالآخر. يسعى الراوي في أعمال موديانو إلى تحقيق "السلطة السردية دون استبداد، بينما يصر على أن كل سيرة ذاتية تخضع لتشكيل صاحبها."[6] عادة ما تأتي هذه الروايات بصيغة ضمير المتكلم ولعل هذه الصيغة تتوخى ضمن ما تتوخى تأسيس علاقة مباشرة بالقارئ، علاقة بوح، علاقة تتسم بالتردد وبجرعات كبيرة من اللايقين وبالبياضات التي توعز عادة إلى بياضات الذاكرة الإنسانية. هكذا تحتوي هذه الحكايات على أسئلة تبقى عالقة، معلومات ناقصة، بورتريهات تتوقف عادة عند ملمح طاغ، وجهات نظر تخص الراوي دون أن تزعم الشمولية واليقين. تتوالى القطع، والحكايات والشذرات، لكنها تؤشر أبدا إلى آفاق لم تتحقق بعد.

ولعل أحد العوامل وراء هذا المنحى في الكتابة يعود إلى شعور موديانو الممض بوطأة الذكريات والأحداث التي تشكل لحمة أعماله. فالتاريخ الخام، الهاجع بين حنايا الماضي، يتعذر الوصول إليه، وقد يتمخض هذا الشعور عن حكايات قد تفارق الماضي وقد تناقضه في أحايين كثيرة. فعشب الليالي، وهي تقدم فصلا شائكا في قضية الاغتيال السياسي، تقدم رؤية للحدث قد لا يتفق معها الكثيرون. يقدم موديانو اغتيال المعارض المغرب-ي المهدي بن بركة باعتباره "اغتيال رجل،" ويقدم رواية تثير أسئلة كثيرة حول مصداقية التاريخ. وبهذا، وهو يحكي عن أحداث عايشها عن كثب، يجعل من هذه القضايا موضع السؤال أبدا، أسئلة تولد أسئلة أخرى، دون أن يبدي القول الفصل. حسب ديرفي كوك، يرجع غياب الاكتمال في أعمال موديانو إلى الحفاظ على هذه الروايات مفتوحة أبدا على آفاق قد لاتتحقق، إلى خاصية تليدة لعالمه الروائي.[7] في هذا الناموس، يتساوى الراوي والقارئ، ويكون الأخير شريكا في لعبة كتابية تسعى إلى ملء بياضات النص واستدراجه إلى الحلول محل راو لا يملك هو الآخر مفاتيح النص. لا يكتفي الراوي باستدراج القارئ للتواطؤ في هذه اللعبة، ولكنه يدعوه أيضا إلى مساءلته كمصدر للحكاية، وإلى اعتباره مجرد شخص يحكي الحكاية من زاويته الخاصة. وهكذا يستوي القارئ والراوي على مستوى ما تحبل به هذه المتون من أحداث ووقائع تاريخية، ويكون التاريخ هو الآخر، في أحد أبعاده، مبنى حكائيا، استراتيجية كتابية يتكئ عليها الكاتب لنسج عوالمه التخييلية. ولعل توظيف الماضي هنا يصبو إلى إبقاء الحاضر راهنا أبدا ينخرط في واقعه ويحيا زمنه. وقد لا تتخلق هذه الصيرورة إلا إذا مورس الإبداع والتفكير في هذا الماضي كتوليفة بين الحساسية الفائقة والفهم الخارق. فكلما غابت الذاكرة وجف نسغها، غدت الانسانية مثل دمى محشوة بالقش.

لعلنا لا نلوي عنق الحقيقة إذا قلنا إن بطل رواية موديانو الأخيرة، حتى لا تتيه في الحي، كما هو الأمر في الروايات الأخرى، الأفق وعشب الليالي على سبيل التمثيل، هو المذكرة السوداء التي تكون تارة مغلفة بغلاف أسود وتارة أخرى دون ذكر لهذا التفصيل، لكنها تبقى في جميع الأحوال

مغلفة بطبقات من الرمزية والتشفير يتقطر دلالة. أمام شخصيات باهتة، رمادية، تحيا حاضرا لا أفق له، تبدو هذه المذكرة، أو دفتر العناوين، حاضرة غائبة، ولعل غيابها في حتى لاتتيه في الحي هو الذي يستعلن عملية السرد ويحفز الذاكرة الهاجعة على البوح. بيد أن عكاز الذاكرة هذا ينخره العث ويبدو مهترئا من الداخل: هذه المذكرة تحمل بين طياتها عناوين لم تعد صالحة، مجرد أرقام هواتف لا تمت بأي صلة للحاضر، دَوال عالقة في حاضر سرمدي، وقد فكر مرارا في تمزيقها مزقا حتى تذروها الرياح. يكون جون دراغان مطمئنا في شرنقته الخاصة، عازفا عن الحاضر حتى يتسدرجه ثنائي هو جيل أوتوليني، شخص محتال يدعي أنه صحافي، وشريكته شنتال غريباي التي تذكره بامرأة أخرى، تدعى هي الأخرى شنتال، كان قد عرفها في حياة أخرى. وكما لو أن موديانو أراد هذه المرة أن يتخلص من هذه المذكرة، عكازه إلى الماضي، لكنها تأبى على التلف، وتصر على ملازمته كظله. ومن هنا تتخلق الحكاية من الحكاية، والرواية من الرواية، فتنهض أرواح الموتى وغيابات الماضي وظلمات التاريخ. ومرة أخرى تتشح الأمكنة والأزمنة بوشاح من الفقد، والوحشة، والهجران وتستطيل الجغرافيا ظلالا شاحبة فقدت كل ملامحها الطبيعية لتنهض مكانها غابات اسمنتية شائهة تخلق حالات من الغربة والعزلة.

وكأن موديانو يحيى مبدأ ألف ليلة وليلة الذي يوازي بين الحكاية والحياة، بين غياب الحكاية والموت. ولأن للذاكرة منطقها الخاص، فهي لا تأتي دفعة واحدة، متدفقة، مسترسلة، مثل سيولة الهذيان، ولكنها تفضي بمكنوناتها شيئا فشيئا، ومن هنا كانت حاجة موديانو لأكثر من رواية ورواية ليستودعنا مخزونه من الذكريات والخواطر.[8] بعيدا عن الضوضاء وقريبا من السكات، ينتقل بنا باتريك موديانو من الذاكرة الإنسانية إلى ذاكرة النصوص، ويرتحل بنا عبر أزمنة وأمكنة مختلفة.

توفيق سخان

تقريبًا لا شيء، مثل لسعة حشرة تبدو لك للوهلة الأولى خفيفة جدًّا. على الأقل هذا ما تهمسُ به في سريرتك حتى تبدد خوفًا وتطمئن جانبًا. كان الهاتف قد رن حوالي الساعة الرابعة زوالاً بمنزل جون دراغان، في الغرفة التي كان يلقبها "المكتب". كان قد استلقى على الأريكة التي توجد بالداخل، بمنأى عن أشعة الشمس. كانت هذه الرنات التي لم يعد معتادًا على سماعها منذ أمد بعيد لا تتوقف عن الطنين. لماذا هذا الإلحاح وهذه اللجاجة؟ على الجانب الآخر، يبدو كما لو أن الشخص المتصل نسي أن يضع السماعة. أخيرًا، نهض على مضض، وتوجه نحو جانب من الشقة بالقرب من النوافذ حيث تلقي الشمس بشواظها.

- أود الحديث إلى السيد جون دراغان.

صوت رخو تشي نبراته بالوعيد. هذا ما تبادر إليه للوهلة الأولى.

- السيد دراغان؟ هل تسمعني؟

أراد دراغان أن يقفل الخط، لكن ما الفائدة؟ ستعود الرنات من جديد، دون أن تتوقف أبدًا. اللهم إذا قطع خط الهاتف بالمرة...

- هو بعينه.

- يتعلق الأمر بدفتر مذكراتك سيدي.

كان قد أضاع الدفتر الشهر الماضي في قطار كان يقله إلى لا كوت دا زور. أجل، لا بد أن دفتر العناوين كان قد انسل من جيب السترة في اللحظة التي أخرج فيها تذكرته ليقدمها للمراقب.

- لقد عثرت على مذكرة عناوين تحمل اسمك.

على غلأفها الرمادي كان قد كتب: في حالة الضياع الرجاء إرسالها إلى... وكان دراغان، في يوم من الأيام، وعلى نحو آلي، قد كتب اسمه، وعنوانه، ورقم هاتفه.

- سأوافيك بها إلى المنزل. اليوم والساعة التي تختارها.

- أجل، بكل تأكيد.

صوت رخو تشي نبراته بالوعيد. وقد يكون هذا الصوت، كما خمن دراغان، لشخص يمارس الابتزاز.

- أفضل أن نلتقي بالخارج.

قام بجهد للتغلب على ضيقه وتبرمه. غير أن صوته، الذي أراد له أن يكون محايدًا، بدا له فجأة باهتًا.

- كما تشاء، سيدي.

ران صمت.

- للأسف، أنا على مقربة من منزلك. كنت أود أن أوافيك بها شخصيًّا.

تساءل دراغان إذا لم يكن الرجل واقفًا أمام المبنى، وإذا ما كان يرابط هناك يرقب خروجه. يجب التخلص منه بأسرع ما يمكن.

وأخيرًا قال:

- سنلتقي غدًا زوالاً.

- كما تشاء. ولكن في هذه الحال، سيكون ذلك بالقرب من مكان عملي. على جانب محطة سانت لا زار.

كان على وشك أن يقفل الخط، لكنه حافظ على برودة أعصابه.

- هل تعرف شارع لاركاد؟

سأل الآخر ثم أردف: بمقدورنا أن نتقابل هناك في مقهى. في المبنى 42، شارع لاركاد.

دون دراغان العنوان، ثم استجمع أنفاسه وقال:

- جيد، سيدي. المبنى 42، شارع لاركاد، غدًا، في الساعة الخامسة مساء.

ثم أقفل الخط دون أن ينتظر جواب مخاطبه. وكان أول ما أحسه العتب والندم على ما بدر منه من فظاظة وجفاء، لكنه حمل ذلك على الحرارة التي كانت بباريس منذ أيام قليلة، حرارة غير عادية بالنسبة لشهر أيلول. كانت تشد عليه الخناق وترغمه على البقاء حبيس جدران هذه الغرفة حتى غروب الشمس. ناهيك أن الهاتف لم يرن منذ شهور خلت. أما الهاتف النقال على مكتبه، فهو لا يذكر آخر مرة استعمله. بالكاد يعرف كيف يستعمله، وغالبًا ما يخطئ وهو يضغط على أزراره.

لو أن الغريب لم يتصل، لنسي أمر هذه المذكرة إلى الأبد. حاول أن يتذكر الأسماء التي ترتسم بين ثناياها. خلال الأسبوع الماضي، أراد إعادة كتابتها، وهكذا، على ورقة بيضاء، أخذ يضع قائمة لها. لكن بعد هنيهة، كان قد مزق الورقة. ولا أحد من الأسماء له صلة بالأشخاص المهمين في حياته، وكان في غنى عن تدوين عناوينهم وأرقام هواتفهم؛ فهو يحفظها عن ظهر قلب. في هذه المذكرة، لا شيء سوى علاقات يمكن القول بشأنها إنها "علاقات عمل". بعض العناوين التي تبدو مهمة، أسماء لا تتجاوز الثلاثين، ومن بينها هناك العديد من الأسماء التي كان عليه أن يتخلص منها؛ لأنها لم تعد صالحة. الشيء الوحيد الذي أضحى شغله الشاغل بعد أن أضاع المذكرة هو أنه ذكر اسمه الخاص وعنوانه. بالطبع، بمقدوره أن يتجاهل الأمر، وأن يترك هذا الشخص ينتظر عبثًا بالمبنى 42 بشارع لاركاد، لكن حينها سيبقى هناك شيء عالق، تهديد يربض في الأفق. كان

غالبًا ما يراوده حلم، خلال بعض الزوالات التي تثقل عليه فيها الوحشة، بأن الهاتف سيرن وبأن صوتًا ناعمًا سينثال عبر السماعة ليضرب له موعدًا. كان يتذكر عنوان رواية كان قد قرأها: زمن اللقاءات. ربما أن هذا الزمن لم ينقض بعد بالنسبة له. غير أن الصوت منذ قليل لا يبعث على الطمأنينة. صوت رخو ومهدد في الآن ذاته، هذا الصوت. أجل.

* * *

طلب من سائق سيارة الأجرة أن يتوقف بشارع لامادلين. كان الجو أقل حرارة قياسًا بالأيام السابقة، وبوسع المرء أن يسير شرط أن يختار الرصيف حيث تستطيل الظلال. سار طوال شارع لاركاد، شارع موحش وساكن تحت أشعة الشمس.

لم يعد يتردد على هذه الأماكن منذ مدة. يذكر أن أمه كانت تمثل في مسرح بالجوار، وأن أباه كان له مكتب بآخر الشارع، على اليسار، في المبنى 73، بجادة هاوسمان. اندهش لأنه لا يزال يذكر رقم 73. غير أن كل هذا الماضي غدا شفافًا مع مرور الزمن.. بخار يتبدد تحت أشعة الشمس.

كان المقهى يقع في زاوية ما بين الشارع وجادة هاوسمان. صالة فارغة، كونتوار طويل تعلوه رفوف، كما لو في محل للخدمة الذاتية أو مطعم عتيق. جلس دراغان إلى واحدة من الطاولات في الداخل. هل سيلتزم هذا الشخص المجهول بالموعد؟ كان البابان مفتوحين، واحد على الشارع والآخر على الجادة، بسبب الحرارة. على الجانب الآخر من الشارع، كانت البناية الكبيرة رقم [illegible].. تساءل إذا ما كانت إحدى نوافذ مكتب أبيه تطل على هذا الجانب. في أي طابق؟ غير أن ذكرياته كانت تغدو مشوشة ومضطربة في الوقت ذاته، كفقاعات صابون أو مِزق أحلام تتبخر مع اليقظة. لعل ذاكرته كانت ستسعفه أكثر لو كان اللقاء في مقهى بشارع ماتوران، قبالة المسرح، هناك حيث كان ينتظر أمه، بالقرب من محطة سانت لازار، منطقة كان يرتادها مرارًا في الماضي. لكن لا. بالتأكيد لا. لم تعد المدينة كما كانت.

- السيد جون دراغان؟

تعرف على الصوت حالاً. لاح رجل في الأربعينيات من عمره أمامه برفقته فتاة تصغره سنًّا.

- جيل أوتوليني.

كان الصوت ذاته، صوت يمزج بين الرخاوة والوعيد. أشار إلى الفتاة:

- صديقة.. شنتال غريباي.

بقي دراغان جالسًا في مكانه، دون أن يحرك ساكنًا، أو أن يمد له يده. جلس الاثنان قبالته.

- المعذرة.. لقد تأخرنا قليلاً.

راح يتحدث بنبرة ساخرة، حتمًا ليغطي ارتباكه. نعم، لقد كان الصوت ذاته وقد تخللته نبرة خفيفة، بالكاد يمكن ملاحظتها، لضاحية ميدي. لم ينتبه دراغان لهذا الأمر البارحة على الهاتف.

سحنة عاجية، عينان سوداوان، أنف معقوف. كان الوجه ضامرًا، بملامح بارزة من الأمام والجانب.

وبنفس النبرة الساخرة التي يبدو أنها تداري قلقًا ما أخبر دراغان:

- ها هي مذكرتك.

وأخرج من جيب السترة دفتر العناوين. وضعه على الطاولة وهو يغطيه براحة يده، بينما فصل بين الأصابع. كان الأمر يبدو كما لو أنه يريد أن يحول بينه وبين أخذه.

بقيت الفتاة متوارية قليلاً إلى الخلف، كما لو أنها لا تريد أن تثير الانتباه إلى نفسها، فتاة في الثلاثينيات من عمرها، شعرها قصير. كانت ترتدي قميصًا وبنطالاً أسود. أجزت بنظرة قلقة نحو دراغان. بسبب وجنتيها وعينيها المغوليتين، تساءل إذا كانت من أصول فيتنامية أو صينية.

- وأين عثرت على هذه المذكرة؟

- على الأرضية، أسفل مقعد للطعام بمحطة ليون.

مد له مذكرة العناوين. دسها دراغان في جيبه. في الواقع، يذكر أنه يوم انطلاقه إلى لاكوت دو لازور كان قد وصل باكرًا وجلس في غرفة الطعام في الطابق الأول.

سأل المدعو جيل أوتوليني:

- هل ترغب في تناول شراب ما؟

ود دراغان لو يغادر بلا استئذان، لكنه عدل عن الفكرة.

- شويبس.

قال أوتوليني وهو يلتفت نحو الفتاة:

- حاولي أن تجدي من يلبـي طلباتنا. سآخذ كوب قهوة.

نهضت هذه الأخيرة حالاً. يبدو أنها اعتادت الامتثال لأوامره.

- لا بد أنك شعرت بالقلق بسبب ضياع هذه المذكرة..

دفع إلى وجهه ببسمة بدت غريبة، بدت لدراغان وقحة. لكن ربما قد يعود الأمر إلى مجرد شعوره بالرعونة أو الخجل.

رد دراغان:

- كما تعلم، لم أعد أقوم بمكالمات هاتفية.

نظر إليه الآخر بذهول. كانت الفتاة قد عادت أدراجها نحو طاولتهم وجلست في مكانها.

- لقد توقفوا عن تلبية الطلبات. إنه أوان الإغلاق.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يتناهى فيها إلى دراغان صوت هذه الفتاة، صوت أجش يفتقر إلى نبرة ضاحية ميدي الخفيفة التي تميز صوت جارها. على العكس، كانت لهجتها باريسية، وقد تساءل إذا ما كان لذلك أي معنى اليوم.

سأل دراغان:

- هل تشتغل في الجوار؟

- في وكالة للإشهار، شارع باسكيي، وكالة سويرتز.

- وأنتِ أيضا؟

التفت نحو الفتاة.

"لا". رد أوتوليني، دون أن يتيح للفتاة فرصة الجواب: "هي في حالة عطالة الآن".

ومن جديد هذه الابتسامة المنقبضة. الفتاة هي الأخرى حاولت أن تدفع بسمة إلى وجهها.

كان دراغان على عجلة للمغادرة. إذا لم يقم بذلك فورًا، هل سيتمكن من التخلص منهما لاحقًا؟

مال نحو دراغان، وقد أضحى صوته أكثر حدة:

- سأصارحك القول...

داخل دراغان نفس الشعور كما البارحة، على الهاتف. نعم، لدى هذا الرجل إلحاح كإلحاح حشرة.

- لقد تجرأت وتصفحت دفتر عناوينك... مجرد فضول..

كانت الفتاة قد أمالت رأسها جانبًا، كما لو كانت تتظاهر بعدم الاستماع.

- لستَ منزعجًا، أليس كذلك؟

نظر إليه دراغان مباشرة، فالتقت نظراتهما.

- لماذا سأكون منزعجًا؟

صمت. في الأخير طأطأ عينيه، وبنفس الصوت المعدني نبر:

- ثمة شخص يرد اسمه في دفتر عناوينك. أود أن تزودني ببعض المعلومات بشأنه..

غدا الصوت أكثر تواضعًا.

- عذرًا عن تطفلي...

سأل دراغان على مضض:

- بمن يتعلق الأمر؟

شعر فجأة بالحاجة للنهوض والانطلاق بخطا سريعة نحو الباب الذي يفضي إلى جادة هاوسمان واستنشاق الهواء المنعش.

- شخص يدعى غاي تورستيل.

كان قد نطق بالاسمين الشخصي والعائلي وهو يضغط على الحروف، حرفًا حرفًا، عساه يستفز الذاكرة الهاجعة لمخاطبه.

- من قلت؟

- غاي تورستيل.

أخرج دراغان من جيبه دفتر العناوين وفتحه على حرف التاء. قرأ الاسم أعلى الصفحة، دون أن يثير ذلك اهتمامه.

- لا أرى من عساه يكون.

- حقًّا؟

بدا الآخر مصابًا بالخيبة والألم.

"ثمة رقم هاتفي من سبعة أرقام". قال دراغان ثم أردف: "لا بد أن الأمر يعود على الأقل إلى

ثلاثين سنة خلت..".

قلب الصفحات. كل الأرقام الهاتفية الأخرى تمت إلى الحاضر. أرقام من عشرة أرقام. كما أنه لم يلجأ إلى دفتر العناوين هذا إلا منذ خمس سنوات خلت.

- ألا يعني لك هذا الاسم أي شيء؟

- لا.

منذ سنوات قليلة، كان سيقدم برهانًا على هذه الحفاوة التي يشهد له بها العالم بأسره. كان سيخبره: "امنحني القليل من الوقت لتبديد هذا الغموض.."، لكن الكلمات لم تطاوعه.

استأنف الآخر الحديث:

- السبب في ذلك يعود إلى موضوع جمعت حوله بعض المعطيات. يرد هذا الاسم. هكذا...

بدا فجأة في وضع دفاع.

- أي نوع من المواضيع؟

كان دراغان قد طرح السؤال بشكل تلقائي، كما لو استعاد ردود الفعل القديمة التي تميز فضوله.

- موضوع قديم جدًّا... أردت أن أكتب مقالاً حول الموضوع. في البداية كنت أشتغل في الصحافة، كما تعلم..

غير أن انتباه دراغان تلاشى. عليه أن يغادر بأسرع ما يمكن، وإلا فإن هذا الرجل سيسرد عليه قصة حياته.

"أنا آسف". أخبره ثم واصل: "لقد نسيت هذا المدعو تورستيل... في سني، ثمة ثقوب تغشى الذاكرة. علي لسوء الحظ أن أنصرف".

نهض ثم صافحهما. حدجه أوتوليني بنظرة قاسية، كما لو أن دراغان تسبب له في أذى، وبأنه كان على استعداد للرد بطريقة عنيفة. الفتاة، من جانبها، طأطأت عينيها.

خطا نحو الباب الزجاجي المشرع الذي يفضي إلى جادة هاوسمان، وهو يأمل بألا يعترض الآخر طريقه. في الخارج، تنفس ملء رئتيه. كم كان غريبًا أن يلتقي بشخص لا يعرف عنه أي شيء، هو الذي لم يلتق بأي شخص منذ ثلاثة أشهر، ومع ذلك لم يسئ التصرف أو يتمادى في ذلك.. على العكس. في هذه العزلة، لم يسبق له أن شعر بمثل هذه الخفة، وهذه اللحظات الغريبة من الزهو في الصباح أو المساء، كما لو أن كل شيء لا يزال ممكنًا، وبأن المغامرة، حسب عنوان لفيلم قديم، تكمن عند زاوية الشارع... أبدًا، حتى خلال مواسم الصيف في شبابه، لم تبد له الحياة مجردة من الثقل بهذا الشكل مثل بداية هذا الصيف. غير أنه خلال الصيف يكون كل شيء معلقًا - موسم "ميتافيزيقي"، كما كان يخبره في الماضي موريس كافين، أستاذ الفلسفة. غريب، يذكر اسم "كافين" لكنه لا يذكر شيئًا عن "تورستيل".

كانت الشمس لا تزال ترسل أشعتها، وكان نسيم عليل يهفو ملطفًا من حدة الحرارة. في هذه الساعة، كانت جادة هاوسمان موحشة.

خلال الخمسين سنة الأخيرة، كان غالبًا ما يمر بهذا المكان، وحتى خلال سنوات صباه، حينما كان يسير رفقة أمه على امتداد الجادة، إلى مخزن البرانتون الكبير. غير أن المدينة بدت له هذا المساء غريبة. كان قد أسلس القياد لكل المراسي التي كان يمكن أن تشده إليها، أو لعلها هي التي لفظته.

جلس على مقعد وأخرج دفتر العناوين من جيبه. كان يستعد لتمزيقه ونثره قطعًا في سلة المهملات البلاستيكية الخضراء المحاذية للمقعد، لكنه تردد. كلا سيقوم بذلك لاحقًا، بمنزله، بكل هدوء. تصفح الدفتر دون انتباه. من بين كل أرقام الهواتف، لا يوجد أحد تثمله الرغبة في الاتصال بصاحبه. أما الرقمان أو الأرقام الثلاثة التي لا توجد على صفحات المذكرة، والتي كانت مهمة بالنسبة له ويحفظها عن ظهر قلب، فلم يعد أصحابها يردون على الاتصالات.

حوالي الساعة التاسعة صباحًا رن الهاتف. كان قد استيقظ.

- السيد دراغان؟ جيل أوتوليني.

بدا له الصوت أقل عنفًا من البارحة.

- أعتذر عما بدر مني البارحة... ينتابني إحساس بأنني ضايقتك...

كانت النبرة مهذبة، ولعلها تشي بشيء من الاحترام. لا مزيد من إلحاح الحشرة الذي ضايق دراغان كثيرًا.

- البارحة... أردت أن ألحق بك في الشارع... لقد غادرت بغتة...

صمت، لكنه لم يكن ثقيلاً.

- أتعلم، لقد قرأت بعض كتبك، خصوصًا ذلك الذي يحمل عنوان سواد الصيف..

سواد الصيف. مرت لحظات قبل أن يدرك بأن الأمر يتعلق، فعلاً، برواية كان قد كتبها، في الماضي. كتابه الأول. كان ذلك منذ مدة.

- لقد أحببت سواد الصيف كثيرًا. ذلك الاسم الذي يرد في دفتر عناوينك والذي تحدثنا بشأنه.. تورستيل.. لقد استعملته في سواد الصيف.

لا يذكر دراغان أي شيء. كما لا يذكر أي شيء عن بقية الكتاب.

- هل أنت متأكد؟

- لم تقم سوى بالاستشهاد بهذا الاسم.

- علي إعادة قراءة سواد الصيف، لكنني لا أتوفر على نسخة واحدة منه.

- بوسعي أن أعيرك نسختي.

بدت النبرة لدراغان أكثر جفاء، تشف عن الوقاحة. لا شك أنه أساء الفهم. بسبب عزلة طويلة الأمد (فلم يتبادل أطراف الحديث مع أي شخص منذ بداية الصيف) تصبحُ مرتابًا ونزقًا إزاء أشباهك وقد تسيء تقديرهم. لا، ليسوا بهذا السوء.

- البارحة، لم يكن لدينا متسع من الوقت للخوض في التفاصيل، لكن ماذا تريد من هذا الشخص المدعو تورستيل؟

استعاد دراغان صوته الطافح بالبشر. كان يكفي أن يتحدث إلى شخص ما. كان الأمر يشبه الحركات الرياضية التي تعيد للمرء مرونته.

- على ما يبدو فهو متورط في قضية عامة. في المرة القادمة التي نلتقي فيها، سأبسط أمامك كل الوثائق. لقد سبق وأن أخبرتك بأنني أكتب مقالاً حول الموضوع.

هكذا إذن، فهذا الشخص يرغب في لقائه من جديد، لمَ لا؟ منذ مدة قليلة كان يشعر بتحفظ إزاء فكرة أن يقتحم أشخاص جدد حياته. لكنه، في لحظات أخرى، كان يشعر بأنه لا يزال مستعدًّا لذلك. هذا رهن الأيام. في الأخير أخبره:

- إذن، ما هو المطلوب مني؟

- علي أن أتغيب ليومين بسبب العمل. سأتصل بك عند عودتي، ثم سنحدد موعدًا.

- كما تشاء.

فارقه مزاج البارحة. لا بد أنه كان مجحفًا في حق هذا المدعو جيل أوتوليني، والتقى به في توقيت غير مناسب. هذا يعود إلى رنين الهاتف الذي أخرجه عنوة من غفوته زوال البارحة.. رنين نادر منذ أشهر قليلة بحيث إنه سبب له الذعر، وبدا له أيضًا مهددًا كما لو أن شخصًا ما جاء ليطرق بابه مع الفجر.

لم تكن تحذوه الرغبة لإعادة قراءة سواد الصيف، مع أن هذه القراءة ستجعله يستشعر بأن شخصًا آخر كتبها. سيطلب من جيل أوتوليني أن ينسخ له فقط الصفحات التي يرد فيها اسم تورستيل. هل سيكون هذا كافيًا لاستثارة ذاكرته؟

فتح المذكرة عند حرف التاء، ثم سطر بقلم أزرق تحت اسم "غاي تورستيل 55 423 40"، وأضاف إلى جانب الاسم علامة استفهام. كان قد أعاد نقل كل هذه الصفحات انطلاقًا من دفتر عناوين قديم، وقد شطب على أسماء المختفين والأرقام التي لم تعد صالحة. لا بد أن هذا المدعو غاي تورستيل انسل إلى أعلى الصفحة في غفلة منه. عليه العثور على دفتر العناوين القديم الذي يجب أن يعود إلى ثلاثين سنة خلت، وربما حينها سيتذكر هذا الاسم ضمن أسماء أخرى من الماضي.

لكنه اليوم يفتقر إلى الشجاعة للتنقيب في الخزانات والأدراج، ناهيك عن إعادة قراءة سواد الصيف. على أي حال، فقراءاته تناقصت بحيث لم تعد تشمل سوى كاتب واحد: بوفون[9]. كان يجد لديه الكثير من العزاء بفضل شفافية أسلوبه، ويشعر بالأسى لأنه لم يتأثر به: كتابة روايات تكون شخوصها حيوانات، ولمَ لا أشجار أو ورود؟ لو سأله سائل اليوم أي كاتب يحلم أن يكونه؟ لأجاب دون تردد: بوفون، مؤلف كتب الأشجار والورود.

رن الهاتف في الزوال، في الوقت ذاته كما في اليوم السابق، وحسب دراغان أن الأمر يتعلق، كَرة أخرى،بجيل أوتوليني. لكن لا، عبر السماعة انثال صوت أنثوي.

- شنتال غريباي. هل تذكر؟ لقد التقينا البارحة برفقة جيل.. عذرًا عن الإزعاج.

كان الصوت خافتًا، مشوشًا بسبب نشيش ما.

صمت.

- سيد دراغان، أود أن ألتقي بك. أريد أن أتحدث إليك بشأن جيل..

الآن، غدا الصوت أقرب. يبدو أن هذه المدعوة شنتال غريباي قد تغلبت على خجلها.

- البارحة حينما غادرتَ، خاف أن يكون قد تسبب في غضبك. إنه يقضي يومين في ليون من أجل عمله. هل ترغب أن نلتقي نهاية الزوال؟

أخذت نبرة هذه الشنتال غريباي تكتسب الثقة، مثل غطاس تردد قليلاً قبل أن يرتمي في الماء.

- حوالي الساعة الخامسة، هل يناسبك ذلك؟ أسكن بالمبنى 118، شارع شارون.

دون دراغان العنوان في الصفحة ذاتها، حيث كان قد كتب اسم غاي تورستيل.

- الطابق الرابع، آخر الرواق. ستجد العنوان في الأسفل على صندوق الرسائل. إنه باسم جوزفين غريباي، لكنني غيرت الاسم الشخصي.

- المبنى 118، شارع شارون، في الساعة السادسة مساء، الطابق الرابع، سنتحدث بشأن جيل.

- نعم، هذا بالضبط. سنتحدث بشأن جيل.

بعد أن أقفلت الخط، أخذت الجملة التي تلفظت بها قبل قليل: "سنتحدث بشأن جيل"، تتصادى في رأس دراغان مثل خاتمة بيت شعر اسكندري. عليه أن يسألها لماذا غيرت اسمها الشخصي.

بناية من الآجر، أعلى من البنايات الأخرى، لكنها تنسحب قليلاً إلى الوراء. فضل دراغان أن يصعد الطوابق الأربعة بدل أن يستعمل المصعد. في آخر الرواق، على الباب، ثمة لوحة زيارة باسم "جوزفين غريباي". تم شطب اسم "جوزفين" وعوضه كتب اسم "شنتال" بحبر بنفسجي. كان على وشك أن يقرع الجرس غير أن الباب انفتح. كانت ترتدي ثيابًا سوداء، كما في اليوم السابق في المقهى.

- الجرس معطل، لكنني سمعت وقع أقدامك.

ابتسمت دون أن تبرح مكانها، في عتبة الباب. يمكن القول إنها كانت تتردد في دعوته للدخول.

قال دراغان:

إذا شئتِ، يمكننا أن نتناول كأسًا في الخارج.

- لا، إطلاقًا، تفضل.

حجرة متوسطة الحجم وعلى اليمين باب مشرع. يبدو أنه يفضي إلى الحمام. كان مصباح يتدلى من السقف.

- ليس المكان فسيحًا هنا، لكنه سيكون أفضل للحديث الذي سيدور بيننا.

توجهت نحو المكتب الصغير من الخشب الشفاف، بين النافذتين، وأخذت الكرسي ووضعته بالقرب من السرير.

- تفضل بالجلوس.

جلست هي الأخرى على حافة السرير، أو بالأحرى على الفراش، ذلك أن السرير لا يتوفر على عارضة.

- هذه غرفتي.. أما جيل فقد عثر على غرفة أكبر في الحي السابع والعشرين، ساحة غريسيفودان.

هزت رأسها لكي تتحدث إليه. كان يفضل أن يفترش الأرض، أو أن يجلس إلى جانبها، على حافة السرير.

- يعول جيل كثيرًا عليك لكتابة هذا المقال. أتعلم؟ لقد كتب كتابًا، لكنه لم يجرؤ على إخبارك بذلك.

ثم انقلبت على السرير، ومدت ذراعها، وأخذت كتابًا غلافه أخضر، يوجد على الطاولة المحاذية للسرير.

- تفضل.. لا تخبر جيل أنني أعرتك إياه.

كتاب صغير الحجم يحمل عنوان الخيّال المتسكع، ويشير غلافه إلى أنه كان قد نُشر منذ ثلاث سنوات بمنشورات سابليي. فتحه دراغان وألقى نظرة على المحتويات. يتألف الكتاب من فصلين كبيرين: ‘‘مضامير السباق’’ و’’مدرسة فرسان السباق’’.

تطلعت إليه قليلاً بعينيها المغوليتين.

- من الأفضل ألا يعلم بأننا التقينا.

نهضت، وذهبت لتوصد إحدى النافذتين التي كانت مواربة، ثم جلست من جديد على حافة السرير. انتاب دراغان شعور بأنها أغلقت هذه النافذة خشية من التنصت.

- قبل أن يعمل لدى سويرتز، كان جيل يكتب مقالات حول السباقات والخيول في مجلات وجرائد مختصة.

ترددت مثل شخص على وشك البوح بسر ما.

- حينما كان في ريعان الشباب، التحق بمدرسة فرسان السباق بميزون لا فيت. لكن ذلك كان في غاية الصعوبة. كان عليه أن يتخلى.. ستكتشف كل شيء إذا ما قرأت الكتاب.

كان دراغان ينصت إليها باهتمام. كم هو غريب اقتحام حياة الناس بهذه السرعة. كان يظن أن هذا لن يحدث له مجددًا في سنه هذه؛ بسبب الخمول من جانبه، وبسبب الإحساس بأن الآخرين ينأون عنك شيئًا فشيئًا.

- أقحمني في مضامير السباق.. علمني القمار.. إنه مُخدر، كما تعلم.

اعتراها الوجوم والحزن على حين غرة. تساءل دراغان إذا لم تكن تبحث لديه عن سند ما، مادي أو معنوي. وقد جعلته جدية هذه الكلمات الأخيرة التي دارت بخلده يرغب في الضحك.

- ولا تزالين تذهبين إلى المراهنة في مضامير السباق؟

- قليلاً ما أذهب إلى هناك منذ أن شرع بالعمل لدى سويرتز.

خفضت من صوتها. لعلها كانت تخشى أن يدخل جيل أوتوليني فجأة إلى الغرفة ويباغتهما.

- سأريك ما جمعه من ملاحظات بشأن مقاله؛ لعلك عرفت كل هؤلاء الأشخاص.

- أي أشخاص؟

- مثلاً الشخص الذي حدثك بشأنه.. غاي تورستيل.

من جديد، انقلبت على السرير وأخذت من أسفل الطاولة المجاورة ملفًا من الورق الأزرق الناصع المقوى وفتحته. كان الملف يحتوي على أوراق مرقونة وكتاب مدته له: سواد الصيف.

بنبرة جافة قال لها:

- من الأفضل أن تحتفظي به.

- لقد وضع علامات على الصفحات حيث يرد اسم هذا الشخص المدعو غاي تورستيل.

- سأطلب منه أن ينسخها لي. سيكفيني ذلك مؤونة إعادة قراءة الكتاب.

بدت ذاهلة لأنه لا يرغب في إعادة قراءة كتابه.

- بعد قليل سنذهب للقيام أيضًا بنسخ الملاحظات التي سجلها لكي تأخذها معك.

وأشارت إلى الصفحات المرقونة.

- لكن يجب أن يبقى كل هذا سرًّا بيننا.

شعر دراغان بشيء من الانقباض في كرسيه، وحتى يبدو مرتاحًا أخذ يقلب صفحات كتاب جيل أوتوليني. في الفصل المعنون "مضامير السباق"، وقع نظره على كلمة مطبوعة بحروف كبيرة: "لو ترومبلاي". وقد أثارت هذه الكلمة في دواخله إدراكًا مفاجئًا، دون أن يدرك تحديدًا سبب ذلك، كما لو استعاد شيئًا فشيئًا تفصيلاً كان قد نسيه.

- سترى.. إنه كتاب مهم.

رفعت رأسها نحوه وابتسمت.

- أتقيمين هنا منذ مدة؟

- منذ عامين.

الجدران البنية الفاتحة التي لم يتم إعادة طلائها بكل تأكيد منذ سنوات، المكتب الصغير، والنافذتان اللتان تطلان على الساحة.. كان قد أقام في غرف مشابهة حينما كان في عمر هذه المدعوة شنتال غريباي، وعندما كان أصغر منها سنًّا. لكن في تلك الفترة لم يكن ذلك في الأحياء الشرقية. بالأحرى في الجنوب، في أطراف المقاطعتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة. ثم باتجاه الشمال الغرب-ي، ساحة غريسيفودان، والتي أشارت إليها منذ قليل عن طريق صدفة غريبة. وأيضًا، أسفل هضبة مونتمارتر بين بيغال وبلانش.

- أعلم أن جيل اتصل بك هذا الصباح قبل أن يغادر إلى ليون. ألم يطلعك على شيء خاص؟

- فقط بأننا سنلتقي.

- كان يخشى أن تكون غاضبًا.

ربما يكون جيل أوتوليني على علم بلقائهما اليوم. قدّر بأن عليها أن تكون أكثر إقناعا منه حتى تحثه على الحديث، مثل رجال الشرطة الذين يتناوبون على المرء خلال الاستنطاق. لا، لم يذهب إلى ليون وهو يستمع لحديثهما خلف الباب. جعلته هذه الفكرة يبتسم.

- لعلني فضولي بعض الشيء، لكنني أتساءل عن سبب تغييرك لاسمك الشخصي.

- وجدت أن شنتال أكثر بساطة من جوزفين.

قالت ذلك بجدية، كما لو أن هذا التغيير للاسم الشخصي كان ثمرة تفكير ناضج.

- أشعر أن لا أحد اليوم يحمل اسم شنتال. كيف عرفت هذا الاسم؟

- اخترته من روزنامة.

كانت قد وضعت الملف الناصع من الورق الأزرق المقوى على السرير إلى جانبها. كانت صورة كبيرة تطل حتى المنتصف، بين نسخة سواد الصيف والأوراق المرقونة.

- ما هذه الصورة؟

- إنها صورة طفل. سترى.. إنها جزء من الملف.

كان يمقت كلمة "ملف".

- تمكن جيل من الحصول على معلومات من الشرطة حول الموضوع الذي يهمه.. تعرفنا على رجل أمن يراهن هو الآخر في المضامير.. بحث في الأرشيف.. وجد أيضًا الصورة.

استعاد صوتها مرة أخرى الجرس الأجش الذي ميزها في اليوم السابق في المقهى، وهو أمر يفاجئ لدى شخص في سنها.

"بعد إذنك؟". قال دراغان ثم أردف: "هذا الكرسي عال جدًّا".

ثم افترش الأرض، عند قدم السرير. الآن يوجدان في نفس المستوى.

- لكن لا.. لست مرتاحًا هنا.. تعال إلى السرير.

مالت نحوه، وقد دنا وجهها من وجهه إلى حد أنه لاحظ ندبة صغيرة تتخلل وجنتها اليسرى. لو ترومبلاي. شنتال. ساحة غريسيفودان. كانت هذه الكلمات قد حفرت مسارها. لسعة حشرة، للوهلة الأولى خفيفة جدًّا، لكنها تسبب لك ألما يغدو شيئًا فشيئًا ممضًّا، وبعد ذلك شعورًا بالتمزق. يتداخل الماضي بالحاضر، ويبدو هذا طبيعيًّا ما داما لا ينفصلان سوى بعازل من السلوفان. تكفي لسعة حشرة حتى يتمزق السلوفان. لا يستطيع أن يحدد السنة، لكنه كان يافعًا جدًّا، في غرفة هي الأخرى صغيرة مثل هذه الغرفة، برفقة فتاة كانت تدعى شنتال، اسم شخصي كان حينها ذائعًا. كان زوج هذه الفتاة التي تدعى شنتال، والذي يسمى بول، وأصدقاء آخرون لهم ذهبوا كما كانت عادتهم إلى القمار في الكازينوهات في نواحي باريس "إنغيين، فورج لي زو..."، وكانوا يعودون في الغداة بشيء من المال. أما هو، دراغان، وهذه الفتاة التي تدعى شنتال، فقد كانا يقضيان الليلة معًا في غرفة بساحة غريسيفودان حتى عودة الآخرين. كان بول، الزوج، يتردد أيضًا على مضامير السباق. مقامر، لا يهتم سوى بأحابيل القمار.

نهضت شنتال الأخرى (شنتال الحاضر) وفتحت إحدى النافذتين. فقد غدا الجو حارًّا جدًّا داخل الغرفة.

- أنتظر مكالمة هاتفية من جيل. لن أخبره بأنك موجود هنا. هل تعدني بأنك ستساعده؟

من جديد شعر أنهما على اتفاق، هي وجيل أوتوليني، حتى لا يدعا له فسحة للراحة، وأن يضربا له موعدًا كل واحد على حدة. لكن ما الهدف من ذلك يا ترى؟ وسيساعده في ماذا تحديدًا؟ أن يكتب مقالة حول الموضوع القديم، والذي لا يدري، هو دراغان، أي شيء عنه؟ ربما "الملف" من الورق المقوى المفتوح (كما قالت منذ قليل) هذا الملف، هناك، بجانبها على السرير، سيسعفه ببعض التوضيحات.

- هل تعدني بأن تساعده؟

تزايد ضغطها وكانت تحرك سبابتها. لم يعلم إذا كانت هذه الحركة تهديدًا أم لا.

- شرط أن يحدد لي ما يريده مني بالضبط.

تناهت رنة حادة من الحمام. بعد ذلك، توالت نوتات موسيقية.

- هاتفي النقال.. لا بد أنه جيل.

دخلت إلى الحمام وأغلقت الباب وراءها، كما لو أنها لا تريد أن يسمع دراغان حديثهما. جلس على حافة السرير. لم ينتبه إلى الجدار، بالقرب من المدخل، حيث يتدلى من حامل المعاطف فستان يبدو له من الساتان الأسود. من كل جانب، أسفل الذراعين، خيط سنونو من النسيج المقصب الذهبـي. ثمة سحابات على الورك ومقبضتا اليد. فستان عتيق، لا شك أنه وجد في محل الخردة. تخيلها وهي ترتدي هذا الفستان من الساتان الأسود ذي طائري السنونو الأصفرين.

خلف باب الحمام، رانت لحظات طويلة من الصمت، وكان دراغان كل مرة يظن أن الحديث انتهى. لكن سرعان ما يسمعها تقول بصوتها الأجش: "لا، أعدك بذلك..". وكانت هذه الجملة تتكرر مرتين أو ثلاث مرات. كما سمعها تقول أيضًا: "لا، ليس صحيحًا"، و"الأمر أكثر بساطة بكثير مما تظن..". على ما يبدو، كان جيل أوتوليني ينحي عليها باللائمة بشأن موضوع ما أو يفضي لها بقلقه، لكنها تريد أن تطمئنه.

طال الحديث، وقد شعر دراغان بالرغبة في مغادرة الغرفة دون أن يحدث أي ضوضاء. حينما كان شابًّا، كان ينتهز أدنى فرصة لمغادرة الناس دون إذن، دون أن يتمكن من تقديم تفسير مقنع لسلوكه: رغبة في القطيعة واستنشاق الهواء المنعش! لكنه اليوم، كان يشعر بالرغبة ليدع نفسه تنساق مع التيار، دون مقاومة لا طائل منها. سحب من ملف الورق المقوى الأزرق الصافي الصورة التي أثارت انتباهه منذ قليل. للوهلة الأولى، تبدو الصورة تكبيرًا لصورة بطاقة الهوية. طفل في السابعة من عمره، شعر قصير كما كانت الموضة في بدايات الخمسينيات، غير أن هذا يمكن أيضًا أن يكون الحاضر. كنا نحيا فترة شهدت كل ضروب الموضات، سواء تلك التي تنتمي إلى الحاضر أو الأمس القريب، تتداخل وربما قد عاد الناس، بالنسبة للأطفال، إلى تسريحة الشعر هذه التي تعود إلى الماضي. عليه أن يستجلي هذا الأمر، وكان على عجلة من أمره لمراقبة

تسريحة شعر الأطفال في الشارع.

غادرت الحمام وهي تحمل هاتفها النقال في يدها.

- عذرًا.. لقد طال الحديث كثيرًا، غير أنني رفعت معنوياته. أحيانًا يبدو كل شيء لجيل سوداويًّا.

كانت تجلس بجواره على حافة السرير.

- لهذا السبب عليك أن تمد له يد العون. سيكون ممتنًّا إذا تذكرت هذا الشخص المدعو تورستيل.. هل لديك أي فكرة؟

مرة أخرى، الاستنطاق. إلى متى سيتواصل ذلك؟ لن يبارح هذه الغرفة أبدًا. ربما كانت قد أقفلت الباب بالمفتاح. لكنه كان يشعر كثيرًا بالسكينة، وإن كان متعبًا قليلاً، كما يحدث غالبًا عند نهاية ما بعد الزوال. وكان سيطلب منها بكل أريحية إذا ما كان بمقدوره أن يتمدد على السرير.

كان يعيد على مسامعه اسمًا ولم يتمكن من التخلص منه. لو ترومبلاي. مضمار للسباق في الضاحية الجنوبية الشرقية حيث اصطحبته شنتال وبول ذات يوم أحد من أيام الخريف. كان بول قد تبادل أطراف الحديث في المنصة مع شخص يكبرهم سنًّا، وقد شرح له بأنه كان يلتقي به أحياناً بكازينو فورج لي زو، وبأنه كان يتردد أيضًا على مضامير السباق. كان الرجل قد عرض عليهم أن يقلهم في سيارته إلى باريس. لقد كان فعلاً أوان الخريف، ولم يكن الصيف الهندي الذي يسود هذه الأيام حيث يكون الجو حارًّا في هذه الغرفة، دون أن يعرف جيدًا متى يمكنه أن يستأذن بالمغادرة. كان قد أغلق من جديد ملف الورق المقوى الأزرق الناصع ووضعه على ركبتيه.

- علينا الانطلاق للقيام ببعض النسخ لك.. المكان قريب جدًّا.

نظرت إلى ساعتها.

- يغلق المخزن أبوابه الساعة السابعة.. لدينا متسع من الوقت.

حاول لاحقًا أن يتذكر السنة بالضبط التي صادفت ذلك الخريف. من لو ترومبلاي، تابعوا طريقهم عبر لامارن وقطعوا غابة فانسين مع هبوط الليل. كان دراغان يجلس إلى جانب الشخص الذي يقود، وكان الاثنان الآخران في المقاعد الخلفية. كان الرجل قد بدا مندهشًا حينما قام بول بتقديمه - جون دراغان.

كانوا يتحدثون في كل شيء، بما في ذلك السباق الأخير في ترومبلاي. كان الرجل قد أخبره:

- اسمك دراغان، أليس كذلك؟ أظن أنني التقيت بوالديك منذ مدة طويلة.

وقعت عليه كلمة "والديك" وقع المفاجأة. كان ينتابه شعور بأنه كان دومًا وحيدًا.

- يعود الأمر إلى حوالي خمس عشرة سنة، في منزل بالقرب من باريس، أذكر طفلاً...

التفت الرجل نحوه.

- الطفل، هو أنت، أظن...

خشي دراغان أن يطرح عليه أسئلة حول فترة من حياته لم يعد يفكر فيها أبدًا. كما أنه لا يتوفر على ما يمكنه أن يخبره به. غير أن الآخر بقي مُطرقًا. في لحظة ما، تحدث الرجل:

- لم أعد أذكر ذلك المكان بالقرب من باريس.

- ولا أنا.

وشعر بالأسى لأنه كان قد أجابه بهذه الخشونة.

أجل، لقد تمكن أخيرًا من تذكر تاريخ ذلك الخريف، لكنه ما يزال حاليًا جالسًا على حافة السرير، إلى جانب هذه الفتاة التي تدعى شنتال، ويبدو له الأمر كما لو أنه يستيقظ من غفوة مفاجئة. كان يحاول أن يمد حبل الكلام من جديد.

- هل ترتدين غالبًا هذا الفستان؟

أشار إلى الفستان من الساتان الأسود ذي طائري السنونو الصفراوين.

- لقد وجدته هنا، حينما استأجرت هذه الغرفة. لا بد أنه للمستأجرة السابقة.

- أو لربما هو فستانك، في حياة سابقة.

تجهمت ونظرت إليه بارتياب. أخبرته:

- يمكننا أن ننطلق للقيام بالنسخ.

كانت قد نهضت، وكان يخامر دراغان شعور أنها تود مغادرة الغرفة بأسرع ما يمكن. مم كانت تخشى؟ ربما لم يكن عليه أن يثير معها موضوع هذا الفستان.

عند عودته إلى المنزل، تساءل دراغان إذا كان كل ما مر به مجرد حلم. لا شك أن ذلك كان بسبب الصيف الهندي والحرارة.

رافقته حتى مطبعة على شارع فولتير الذي يوجد بآخره محل للنسخ. كانت الأوراق المرقونة خفيفة خفة الأوراق التي كانت تستعمل في الماضي لإرسال الرسائل "بواسطة الجو".

كانا قد غادرا المحل وخطوا خطوات على الشارع. يمكن القول إنها لم تكن ترغب في فراقه. ربما كانت تخشى أنه بعد انفصالهما سيختفي، وأن جيل أوتوليني لن يعلم أبدًا من كان هذا الشخص الغامض المدعو تورستيل. لكنه هو الآخر كان يرغب في البقاء برفقتها ما دامت العودة إلى شقته بمفرده كانت تبعث في نفسه الخشية.

"إذا اطلعتَ على الملف هذا المساء، ربما سينعش هذا ذاكرتك..". وأشارت إلى الملف من الورق الليموني المقوى الذي تحمله في يدها، والذي يحتوي على النسخ. كما أنها حرصت أيضًا على أن تنسخ صورة الطفل. "يمكنك أن تتصل بـي وقت ما تشاء هذه الليلة.. لن يعود جيل إلا غدًا بعد الزوال.. أرغب في معرفة رأيك في كل هذا..".

ثم أخرجت من حقيبتها اليدوية بطاقة زيارة باسم شنتال غريباي، وعنوانها، المبنى 118، شارع شارون، ورقم هاتفها الخلوي.

"علي العودة الآن.. سيتصل بـي جيل وقد نسيت أن أحمل معي هاتفي الخلوي..".

كانا قد عادا أدراجهما وسارا باتجاه شارع شارون. بقيا مطرقين، ولم ينبس أي واحد منهما بكلمة واحدة. لم يكونا بحاجة للحديث. كان يبدو لها طبيعيًّا أن يسيرا جنبًا إلى جنب، كما أن دراغان فكر بأنه لو أمسك بذراعها فستأذن له بذلك، كما لو أنهما يعرفان بعضهما منذ مدة. افترقا أمام سلالم محطة قطار شارون للأنفاق.

الآن، في مكتبه، كان يتصفح صفحات "الملف"، لكنه لم يشعر بالرغبة في قراءتها حالاً.

بداية، كانت الأوراق مرقونة دون أن يكون هناك فاصل كاف بين السطور، كما أن هذا الكم من الحروف التي توجد مكدسة الواحد منها فوق الآخر بعث في نفسه الخمول. أما هذا الشخص المدعو تورستيل، فقد تمكن أخيرًا من التعرف عليه. خلال العودة من ترومبلاي، ذلك الأحد في ذلك الموسم الخريفي، أصر الرجل على أن يقلهم كل واحد منهم إلى مقر سكناه. غير أن شنتال وبول كانا قد ترجلا من السيارة في مونبارناس. من هناك، ينطلق قطار الأنفاق رأسًا إلى منزلهما. كان قد بقي في السيارة لأن الرجل كان قد أخبره بأنه يقيم بالقرب من ساحة غريسيفودان، هناك حيث كان يقيم هو، دراغان، في هذه الغرفة.

لاذا بالصمت خلال شوط كبير من الطريق. وأخيرًا أخبره الرجل:

- كان علي أن أذهب إلى هذا المنزل الذي يقع في نواحي باريس مرتين أو ثلاث مرات.. كانت أمك هي التي أخذتني إلى هناك.

لم ينبس دراغان بكلمة واحدة. في الواقع، كان يتجنب التفكير في هذه الفترة البعيدة من حياته. أما أمه، فهو لا يعلم حتى إذا ما كانت لا تزال على قيد الحياة.

أوقف الآخر السيارة بالقرب من ساحة غريسيفودان.

- بلغ تحياتي إلى أمك، فنحن لم نلتق منذ مدة طويلة. لقد كنا أعضاء في ناد ما مع أصدقاء، نادي الكريساليد.. خذ هذا، قد ترغب في الاتصال بـي.

مد له بطاقة زيارة كتب على ظهرها "غاي تورستيل" و- بقدر ما يذكر - عنوانًا مهنيًّا - مكتبة البلاط الملكي، ورقمًا هاتفيًّا. لاحقًا، أضاع دراغان بطاقة الزيارة. لكنه مع ذلك كان قد نقل الاسم ورقم الهاتف (لماذا؟) في مذكرة عناوينه لتلك الفترة.

جلس إلى مكتبه. أسفل أوراق "الملف"، اكتشف نسخة مصورة للصفحة 47 من روايته، سواد الصيف، حيث يرِد، على ما يبدو، اسم تورستيل. كان هناك خط تحت الاسم، لا شك أن جيل أوتوليني هو من وضعه. قرأ:

رواق بوجولي، كانت توجد فعلاً مكتبة تعرض خلف زجاجها مؤلفات خاصة بالفن. دخل.

كانت فتاة سمراء جالسة إلى مكتبها.

- أود الحديث إلى السيد موريهيان.

"السيد موريهيان غائب". أخبرته ثم أردفت قائلة: "لكن بوسعك الحديث إلى السيد تورستيل".

هذا كل شيء. لا شيء يذكر. لا يبرز الاسم حتى الصفحة 47 من روايته. وكم كانت تعوزه الشجاعة حقًّا، هذه الليلة، للبحث عنه في الأوراق المرقونة دون فاصل كبير بين السطور لـ "الملف". تورستيل. إبرة وسط كومة من القش.

يذكر أنه على بطاقة الزيارة الضائعة يبرز عنوان مكتبة بالبلاط الملكي. لكن، بعد أكثر من خمسة وأربعين سنة، لا يكفي هذان التفصيلان الباهتان لوضعه في أثر رجل صار مجرد اسم.

تمدد على الكنبة وأغمض جفنيه. قرر أن يعتصر مخيلته وأن يعيد، ولو للحظة، مجرى التاريخ إلى الوراء. الرواية، سواد الصيف، كان قد شرع في كتابتها في الخريف، الخريف ذاته الذي ذهب خلاله ذات أحد إلى ترومبلاي. يذكر أنه كتب الصفحة الأولى مساء ذلك الأحد في الغرفة الواقعة بساحة غريسيفودان. ساعات قبل ذلك، حينما حاذت سيارة تورستيل أرصفة لا مارن وبعد ذلك قطعت غابة فانسين، شعر فعلاً بوطأة الخريف: الضباب، رائحة الأرض المخضبة بالماء، المماشي المنثورة بالأوراق الميتة. من الآن فصاعدًا ستكون كلمة "ترومبلاي" مقرونة دائمًا لديه بهذا الخريف.

وكذلك اسم تورستيل الذي استعمله في خوالي الأيام في الرواية. فقط بسبب رنينه. هذا ما يثيره لديه اسم تورستيل. لا يجب الخوض بعيدًا. هذا أقصى ما يمكنه أن يدلي به. سيكون جيل أوتوليني محبطًا دون شك. تبًّا له. على أي، فليس هناك ما يدفعه لتقديم أي تفسير. هذا ليس من شأنه.

تقريبًا الساعة الحادية عشرة ليلاً. حينما يكون وحيدًا في منزله، يشعر غالبًا بما يسمى "العبور إلى الفراغ". هكذا، كان يذهب إلى مقهى في الجوار تفتح أبوابه في ساعة متأخرة جدًّا من الليل. الضوء الساطع، الضوضاء، أشخاص يذهبون وآخرون يأتون، الأحاديث التي كان يتوهم أنه يشارك فيها، كل هذا يساعده، خلال لحظة، على عبوره نحو الفراغ. لكنه منذ مدة قليلة لم يعد بحاجة إلى هذه الوسيلة. يكفيه أن ينظر عبر نافذة مكتبه إلى الشجرة المغروسة في ساحة المبنى

المجاور، والتي تحتفظ بأوراقها لفترة أطول قياسًا بباقي الأشجار الأخرى حتى شهر تشرين الثاني. علم أنها رينية، أو حور رجراج، لم يعد يذكر على وجه التحديد. يتحسر على كل السنوات الضائعة، والتي لم ينتبه خلالها للأشجار أو للورود. هو الذي لم يعد يقرأ سوى التاريخ الطبيعي لبوفون، يذكر فجأة مقطعًا من مذكرات فيلسوفة فرنسية. فقد اندهشت هذه الأخيرة لما صرحت به امرأة خلال الحرب: "ماذا تريدون؟ لم تعدل الحرب من علاقاتي ولو بجزء صغير من العشب". تحسب أن هذه المرأة هي دون شك تافهة وغير مبالية. لكن بالنسبة لدراغان، تحمل الجملة معنى آخر: في فترات المخاض أو الأزمة الأخلاقية، لا سبيل للخلاص سوى بالبحث عن نقطة ثابتة للتماسك، والحفاظ على التوازن وعدم الوقوع في اللجة. يتوقفُ نظرك عند جزء صغير من العشب، شجرة، أوراق وردة، كما لو كنتَ تتعلق بطوق نجاة. هذه النيرية أو الحور الرجراج، وراء الواجهة الزجاجية لنافذته تطمئنه. ومع أن الساعة كانت تشير إلى الحادية عشرة ليلاً، فإنه يشعر بالطمأنينة بفضل وجودها الأخرس. إذن، من الأفضل أن ينتهي فورًا ويقرأ الصفحات المرقونة. عليه أن يضع الأمور في نصابها: فقد بدت له هيئة جيل أوتوليني وصوته للوهلة الأولى مناسبًا لشخص محتال. أراد أن يتغلب على هذا الشعور المسبق. لكن هل تمكن فعلاً من ذلك؟

نزع المقبض الذي يجمع الأوراق معًا. لم يكن ورق النسخ المصورة مثل الورق الأصلي. يذكر كيف كانت الأوراق، بينما كانت شنتال غريباي تقوم بنسخها، رقيقة وشفافة. كانت قد أثارت لديه ذكرى أوراق الرسائل "بواسطة الجو". لكن الأمر لم يكن تحديدًا على هذا النحو. لقد كانت شفافيتها مثل شفافية الأوراق التي تستعمل في محاضر الشرطة. كما أن شنتال غريباي كانت قد أخبرته: "تمكن جيل من الحصول على بعض المعلومات من رجل أمن..".

ألقى نظرة أخيرة على أوراق الشجرة، أمامه، قبل أن يشرع في القراءة.

كانت الحروف صغيرة جدًّا، كما لو رقنت على واحدة من تلك الآلات المحمولة التي لم تعد توجد اليوم. خامر دراغان إحساس بأنه سيقفز في حساء متختر، سميك. أحيانًا يقفز سطرًا ويكون عليه أن يعود إلى الوراء، بواسطة سبابته. بدل أن يكون التقرير متجانسًا، يتعلق الأمر بملاحظات مختزلة جدًّا جُمعت، جزءًا جزءًا، بأكبر قدر من الفوضى بخصوص اغتيال امرأة تدعى كوليت لوران.

ترسمُ الملاحظات مسارها. وصولها من الضاحية في سن يافعة جدًّا إلى باريس. العمل في علبة ليلية بشارع بونتيو. غرفة في فندق، حي الأوديون. كانت تتردد على تلاميذ مدرسة الفنون الجميلة. لائحة الأشخاص الذين تم استجوابهم والذين يمكن أن تكون قد عرفتهم في العلبة الليلية، قائمة طلبة الفنون الجميلة. العثور على جثة في غرفة فندق، المقاطعة الخامسة والعشرون. استجواب رب الفندق.

إذن هذا هو الموضوع الذي يهم أوتوليني؟ قطع قراءته. كوليت لوران. ظاهريًّا يبدو هذا الاسم عاديًّا، لكنه يثير صدى لديه، لكنه صدى دون صوت، بحيث لا يستطيع تحديده. يبدو له أنه سبق وقرأ التاريخ: 1951، لكن لم تواته الشجاعة للتأكد ضمن الأسماء المضغوطة على بعضها، والتي تمنحك شعورًا بالاختناق.

1951. منذ ذلك التاريخ، مر أكثر من نصف قرن، والشهود على هذا الموضوع، وحتى القاتل، تواروا عن الأنظار. لقد تأخر جيل أوتوليني كثيرًا. سيبقى هذا النبّاش في النفايات يتضور جوعًا. تحسر دراغان لأنه وصفه على هذا النحو الفج. صفحات أخرى حتى ينتهي من القراءة. لا يزال يستشعر دومًا هذا التوتر والقلق الذي تملكه حينما فتح "الملف".

تأمل للحظة أوراق الرينية التي تتهادى بهدوء، كما لو أن الشجرة تتنفس خلال نومها. أجل، هذه الشجرة كانت صديقته، ويذكر عنوان مجموعة شعرية كانت فتاة في الثامنة من عمرها قد نشرتها: الشجرة، صديقتي. شعر بالغيرة نحو هذه الفتاة؛ لأنه كان في نفس عمرها، وأنه هو الآخر في هذه الفترة كان يكتب أشعارًا. إلى متى يعود هذا؟ إلى سنة في صفاه موغلة إلى حد ما في القدم مثل سنة 1951، والتي وقع خلالها اغتيال كوليت لوران.

من جديد، كانت الحروف الصغيرة جدًّا دون فاصل بين السطور تتماوج أمام ناظريه. وكانت سبابته تنساب حتى لا يفقد الخيط الرابط. أخيرًا، اسم غاي تورستيل، كان مقرونًا بثلاثة أسماء أخرى تفاجأ حينما تعرف من بينها على اسم أمه. كان الاسمان الآخران هما: بوب بوغنان وجاك بيران دو لارا. يذكرها بشكل ضباب-ي، وهذا يرجع أيضًا إلى الفترة البعيدة حيث نشرت الصبية التي كانت في عمره "الشجرة، صديقتي". الأول، بوغنان، هيئة رياضية في ثياب بنية خفيفة. أسمر، على ما يظن؛ أما الآخر، فهو رجل، ضخم الرأس مثل التماثيل الرومانية، وكان يلتصق بمرمار المداخن في وضع متعال للحديث. غالبًا ما تكون ذكريات الطفولة تفاصيلَ صغيرة منفصلة عن العدم. هل أثارت هذه الأسماء انتباه أوتوليني، وهل أسست لرابط بينهم وبينه، هو دراغان؟ لكن لا، بالتأكيد لا. أولاً، لا تحمل أمه نفس الاسم العائلي مثله. أما الآخران، بوغنان وبيران دو لارا، فقد ضاعا في ليل الأزمنة، كما أن أوتوليني كان صغيرًا بحيث لن يثيرا أي اهتمام لديه.

وهو يقرأ، ساوره الإحساس بأن هذا "الملف" كان مزيجًا ما حيث تتداخل أجزاء من تحريين مختلفين لم يجريا في نفس السنة، ما دام أن هناك الآن إشارة إلى سنة 1952. بين ملاحظات 1 التي تهم اغتيال كوليت لوران، وتلك التي تظهر على الصفحتين الأخيرتين، ظن أنه مع ذلك ميز خيطًا ناظمًا رقيقًا: "كوليت لوران" كانت قد ترددت على "منزل في سانت لو لا فوري" حيث كانت تقيم "سيدة تدعى آني آستروند". يبدو أن هذا المنزل كان تحت مراقبة رجال الأمن، لكن ما سبب ذلك؟ من بين الأسماء الواردة، هناك أسماء تورستيل، ووالدته، وبوغنان وبيران دو لارا. اسمان آخران لم يكن يجهلهما. روجي فانسون وخصوصًا اسم المرأة التي كانت تقطن في المنزل

بسانت لو لا فوري، "امرأة تدعى آني آستروند".

كان يود أن يخضع هذه الملاحظات القلقة إلى نسق محكم، غير أن هذا الأمر بدا فوق قدراته. كما أنه في هذه الساعة المتأخرة من الليل، تدور في خلد المرء أفكار غريبة: الهدف الذي ينتصب في ذهن أوتوليني حينما جمع كل هذه الملاحظات في ملفه. حسنًا ليس موضوعًا قديمًا ولكنه هو ذاته، دراغان. بالطبع، لم يجد أوتوليني بعد الزاوية المناسبة لحشره ثم شن هجومه؛ إنه يتحسس الطريق، يتيه في طرق متقاطعة، وكان عاجزًا عن الوصول إلى صلب الموضوع. يشعر أنه يدور حوله بحثًا عن طريق للنفاذ. لعله راكم كل هذه العناصر المتباينة على أمل أن يثير أحدها ردة فعل لدى دراغان، كرجال الأمن الذين يبدأون استنطاقًا عن طريق إثارة مواضيع تافهة، الهدف منها تحييد دفاعات المشتبه به. هكذا، حينما يشعر الأخير بالأمان، يتوجهون إليه بالسؤال الرئيسي بكل عنف وفظاظة.

وقع بصره من جديد على أوراق الرينية خلف زجاج النافذة، وشعر بالخجل لأن هذه الخواطر خطرت بباله. فقد برودة أعصابه. الصفحات القليلة التي قام بقراءتها منذ قليل ليست أكثر من أوراق تسويد يعوزها النظام، ركام من التفاصيل يداري الأساس. اسم وحيد سبب قلقه، وشكل بالنسبة له عامل جذب: آني آستروند. لكنه كان بالكاد مقروءًا وسط هذه الكلمات المضغوطة فوق بعضها بعضًا دون فاصل كاف بين السطور. آني آستروند. صوت بعيد يذاع في وقت متأخر جدًّا على الأثير ليبعث لك رسالة. كان قد أكد له شخص ما ذات يوم أن أصوات الذين كنت قريبًا منهم في الماضي سرعان ما يبتلعها النسيان. ومع ذلك، إذا ما سمع اليوم صوت آني آستروند خلفه، في الشارع، فإنه على يقين بأنه سيتعرف عليها.

حينما يلتقي مجددًا بأوتوليني، سيحرص على عدم شد انتباهه إلى هذا الاسم: آني آستروند، مع أنه ليس على يقين بأنه سيلتقي به مجددًا. على الأكثر، سيكتب له رسالة مقتضبة يمنحه فيها بعض المعلومات الشحيحة حول غاي تورستيل. رجل كان يشتغل في مكتبة، رواق بوجولي، على حافة حدائق بالي رويال. أجل، لم يلتق به سوى مرة واحدة، حوالي خمسين سنة خلت، مساء ذات أحد من آحادات الخريف في ترومبلاي. بوسعه أيضًا أن يكون أكثر سخاء، وأن يغدق عليه ببعض التفاصيل الإضافية حول الآخرين، بوغنان وبيران دو لارا. أصدقاء أمه، كما يفترض أن يكون غاي تورستيل. في السنة التي كان يقرأ خلالها أشعار الشجرة، صديقتي، وحيث كان يشعر بالغيرة إزاء هذه الفتاة في عمره، والتي كانت صاحبة الأشعار، كان بوغنان وبيران دو لارا (وربما حتى تورستيل) يحتفظان دومًا بكتاب في جيبيهما، كما لو كان مرسولاً، كتاب يبدو أنه مهم جدًّا. يذكر عنوانه: فابريزيو لوبو[10]. ذات يوم، أخبره بيران دو لارا بصوت جدي: "أنت الآخر، حينما تصير كبيرًا، ستقرأ فابريزيو لوبو"، إحدى تلك الجمل التي ستبقى غامضة حتى نهاية حياتك، بسبب نبرتها. لاحقًا، بحث عن هذا الكتاب، لكنه لسوء الحظ لم يعثر أبدًا ولو على نسخة واحدة منه، وبالتالي لم يقرأه أبدًا. لن يكون بحاجة لاستحضار هذه الخواطر القليلة. الشيء الأكثر احتمالاً هو أن ينتهي بالتخلص من جيل أوتوليني. رنات هاتف لن يرد عليها. رسائل، ستكون بعضها رسائل

مضمونة.

الأمر الأكثر إزعاجًا هو أن ينتصب أوتوليني أمام المبنى، وبما أنه يجهل الشيفرة، فإنه سينتظر حتى يدفع أحدهم الباب الخاص بالعربات لينسحب وراءه. سيأتي ليقرع جرس الباب. سيتوجب أيضًا قطع تيار الكهرباء على هذا الجرس. كل مرة يغادر بيته، سيصطدم بجيل أوتوليني الذي سيتوجه نحوه ويطارده في الشارع. ولن يكون له ملجأ آخر سوى اللجوء إلى مركز الشرطة الأقرب. لكن رجال الأمن لن يأخذوا شروحاته على محمل الجد.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحًا، وكان يقول في داخله إنه في هذه الساعة، في كنف الهدوء والعزلة، يفقد المرء أعصابه دون سبب. استرجع هدوءه شيئًا فشيئًا، وانتابه ضحك هستيري وهو يفكر في وجه أوتوليني، تلك الوجوه الضامرة بحيث حتى لو التقى بها المرء وجهًا لوجه فإنه يظن بأنه التقى بها جانبًا.

كانت الأوراق المرقونة منثورة على مكتبه. أخذ قلمًا يحمل في أحد طرفيه علامة حمراء، وفي الطرف الآخر علامة زرقاء، والذي يستعمله لتصحيح مسوداته. كان يشطب على الصفحات بخطوط عريضة بالقلم الأزرق ويرسم دوائر بالأحمر حول اسم: آني آستروند.

حوالي الساعة الثانية صباحًا، رن الهاتف. كان قد غفا على الأريكة.

- مرحبًا سيد دراغان، معك شنتال غريباي.

خامرته لحظة تردد. كان قد راوده حلم حيث يتراءى وجه آني آسترونـد، وهذا لم يحدث له منذ أكثر من ثلاثين سنة.

- هل قرأت النسخ المصورة؟

- نعم.

- أرجو المعذرة لأنني اتصلت بك في هذا الوقت المتأخر، لكنني كنت في حاجة إلى رأيك.. هل تسمعني؟

- نعم.

- علينا أن نلتقي قبل عودة جيل. هل يمكن أن أمر عليك؟

- الآن؟

- نعم، الآن.

أشار إلى العنوان، رقم الشيفرة، والطابق. هل انبجست من أعماق حلمه؟ قبل قليل، بدا له وجه آني آسترونـد قريبًا جدًّا. كانت تمسك بمقود سيارتها، أمام منزل سانت لو لا فوري، وكان هو جالسًا في المقعد، بجانبها، وكانت تحدثه، لكنه لم يكن يصغي إلى جرس صوتها.

على مكتبه، كانت النسخ المصورة في حالة فوضى. كان قد نسي بأنه كان قد وضع عليها خطوطًا زرقاء. واسم آني آستروند الذي يسترعي الاهتمام بسبب دائرته الحمراء. يجب تجنب إطلاع جيل أوتوليني عليها. هذه الدائرة الحمراء قد تضعه على الطريق. أي شرطي كان سيطرح السؤال إذا ما وقع عليها، بعد أن يكون قد تصفح الصفحات بهدوء.

- لماذا وضعت دائرة حول هذا الاسم؟

ألقى نظرة على شجرة الرينية التي كانت أوراقها هامدة، وقد بعث هذا الطمأنينة في نفسه. كانت هذه الشجرة حارسًا، الشخص الوحيد الذي يرعاه ويحدب عليه. انتصب عند النافذة التي تطل على الشارع. في هذه الساعة، لن تمر أي سيارة كما أن أعمدة الكهرباء كانت تترقرق عبثًا. رأى شنتال غريباي وهي تحث الخطا على الناصية المقابلة، وكانت تبدو أنها تنظر إلى أرقام المباني. كانت تحمل في يدها حقيبة بلاستيكية. تساءل إذا ما كانت قد سارت من شارع شارون حتى هنا. تناهى إليه اصطكاك الباب الخاص بالعربات ووقع أقدامها على السلالم، خطوات بطيئة جدًّا، كما لو كانت تتردد في الصعود. قبل أن تكبس على الجرس، فتح الباب، فقفزت. كانت كدأبها أبدًا ترتدي قميصًا وبنطالاً أسود. بدت له خجولة كما في المرة الأولى، بالمقهى بشارع لاركاد.

- المعذرة على إزعاجك في هذا الوقت المتأخر من الليل.

بقيت متسمرة على عتبة الباب، وقد غلبها طابع الاعتذار. أمسك ذراعها لكي يحثها على الدخول. وإلا، فقد كان يخشى أن تعود أدراجها. في الغرفة التي يستعملها كمكتب، أشار إلى كنبة حيث جلست، ثم وضعت الحقيبة البلاستيكية بجانبها.

- إذن، فقد قرأت الملف؟

طرحت عليه السؤال بصوت ينطق قلقًا. لماذا تولي الأمر كل هذه العناية؟

- لقد قرأت، لكنني لن أسعف صديقك بأي شيء. فأنا لا أعرف هؤلاء الأشخاص.

- حتى تورستيل؟

ستعاود الاستنطاق من جديد، دون انقطاع، حتى الصباح. سيكون جيل أوتوليني العائد من ليون هو الذي ينوب عنها.

- نعم، حتى تورستيل.

- لماذا استعملت هذا الاسم في كتاب إذا كنت لا تعرفه؟

- أختار الأسماء جزافًا وأنا أطالع الدليل السنوي.

- إذن لا يمكنك مساعدة جيل؟

جلس بحذائها على الأريكة وقد دنا وجهه من وجهها. من جديد، لمح الندبة على الوجنة اليسرى.

- يريد أن تساعده على الكتابة.. يظن أن كل ما هو مدون في هذه الأوراق يعنيك بشكل شخصي.

انتابه، في هذه اللحظة، الشعور بأن الأدوار انقلبت، وأنه يكفي فقط القليل من الضغط حتى يجعلها "تنفجر"، حسب تعبير كان قد طرق سمعه سابقًا في مكان معين. تحت ضوء المصباح، لمح الجيوب تحت عينيها ورعشة يديها. بدت له أكثر شحوبًا مما كانت عليه منذ قليل حينما فتح لها الباب.

على المكتب، كانت الصفحات التي شطب عليها بالقلم الأزرق بادية للعيان. غير أنها لم تلحظ أي شيء حتى الآن.

- لقد قرأ جيل كل كتبك كما أنه استطلع حولك..

سببت له هذه الكلمات قلقًا خفيفًا. لقد كان من سوء حظه أن أثار اهتمام شخص سيطارده من الآن فصاعدًا. يحدث الأمر ذاته بالنسبة لأشخاص تلتقي نظراتك بنظراتهم. بوسعهم أن يكونوا عدوانيين على حين غرة دون سبب يذكر، أو أن يتوجهوا نحوك لابتدارك بالحديث، ومن الصعب التخلص منهم. كان يرغم نفسه دائمًا على أن يطأطئ نظره في الشارع.

- كما أنهم يعتزمون تسريحه من وكالة سويرتز.. سيجد نفسه من جديد دون عمل.

تأثر دراغان للنبرة التي اتخذها صوتها. ظن أنه ميز في هذا العياء شيئًا من الغضب، ولمَ لا شيئًا من الاحتقار.

- كان يظن بأنك ستساعده.. يخامرك الإحساس بأنه يعرفك منذ زمان.. يعرف الكثير من الأشياء عنك.

على ما يبدو، كانت تريد أن تقول أكثر من ذلك. لقد دنت الساعة خلال الليل حيث تزول المساحيق وينساب المرء نحو شفا البوح.

- هل تشربين شيئًا ما؟

- آه، نعم.. شيئًا قويًّا.. أحتاج إلى جلد بالسوط.

فوجئ دراغان لاستعمالها، وهي في هذه السن، لهذا التعبير غير المتداول. فلم يسمع كلمات "جلد بالسوط" منذ مدة. ربما كانت آني آستروند تستعمله فيما مضى. كانت تضغط يديها الواحدة على الأخرى، كما لو أنها تسعى للسيطرة على ارتعاشهما.

لم يعثر، في درج المطبخ، سوى على زجاجة فودكا، وقد انتصفت وتساءل عمن يكون قد تركها هنا. كانت قد استقرت على الديوان، وقد مددت ساقيها، ووضعت ظهرها على المسند الليموني الضخم.

- اعذرني، لكنني أشعر بقليل من التعب..

تناولت رشفة، ثم أخرى.

- أشعر بالتحسن. هذا مرعب، هذا النوع من الأمسيات..

نظرت إلى دراغان، كما لو أنها أرادت أن تجعله شاهدًا. تردد قليلاً قبل أن يطرح عليها السؤال.

- أي أمسيات؟

- تلك التي عدت منها للتو..

وبعد ذلك أردفت بصوت جاف:

- يؤدون مقابل هذه "الأمسيات".. كل هذا بسبب جيل.. إنه بحاجة للمال.

نكست رأسها. بدا عليها أنها ندمت على ما تفوهت به. التفتت نحو دراغان، الذي كان جالسًا قبالتها على طنبور من القطيفة الخضراء.

- ليس هو من عليك مساعدته.. بل أنا.

ألقت نحوه بابتسامة يمكن وصفها بأنها تعيسة أو شاحبة.

- أنا مع ذلك فتاة نزيهة.. إذن، علي أن أحذرك من جيل.

غيرت من وضعها وجلست على حافة الكنبة حتى تواجهه.

- لقد علم أشياء عنك بواسطة صديقه الذي يشتغل في سلك الأمن.. إنه يحاول أن يدخل في اتصال معك.

هل هو التعب؟ لم يعد دراغان يدرك ما تقوله. ترى ما هي ‘‘الأشياء’’ التي علمها هذا الشخص عنه بواسطة الأمن؟ على أي، فصفحات ‘‘الملف’’ لم تكن حاسمة. كما أنه لا يكاد يعرف كل الأسماء الواردة فيه. باستثناء أمه، وتورستيل، وبوغنان، وبيران دو لارا. لكن من مكان قصي، لم تكن لهم أي أهمية في حياته. مجرد كومبارسات تواروا عن الأنظار منذ مدة بعيدة. بالطبع، ورد اسم آني آستروند. بالكاد. مرق اسمها تمامًا دون أن يُلحظ، كان غارقًا ضمن الأسماء الأخرى. وأكثر من ذلك، ثمة خطأ في الإملاء: أستران.

‘‘لا تقلقي بشأني’’. قال دراغان ثم أردف: ‘‘لا أخشى أيا كان. وخصوصًا المحتالين’’.

بدت مندهشة لأنه استعمل هذه الكلمة ‘‘محتالين’’، ولكن كما لو كانت أمرًا بديهيًّا لم يخطر على بالها من قبل.

- كنت دومًا أتساءل إذا لم يكن قد سرق دفتر عناوينك..

ابتسمت، وظن دراغان أنها تريد أن تشيع جوًّا من المرح.

- أحيانًا، يخيفني جيل، لهذا السبب أبقى معه.. نحن نعرف بعضنا منذ مدة.

أخذ الصوت يغدو أجشّ شيئًا فشيئًا، وكان يخشى أن يستمر هذا البوح حتى الصباح. هل يمكنه أن يحافظ على تركيزه، وأن يصغي إليها حتى النهاية؟

- لم يذهب إلى ليون من أجل العمل، ولكن ليقامر في كازينو.

- كازينو شاربونييز؟

جرت الجملة بسرعة على شفتيه، وقد كان مندهشًا من هذه الكلمة "شاربونييير"، التي نسيها والتي انبعثت الآن على حين غرة من الماضي. حينما كانوا يذهبون للعب القمار في كازينو شاربونييير، كان بول والآخرون ينطلقون الجمعة أول الزوال، ويعودون إلى باريس يوم الاثنين. إذن، لقد مرت ثلاثة أيام مع شنتال في الغرفة الموجودة بساحة غريسيفودان.

- نعم، لقد ذهب إلى كازينو شاربونييير. يعرف مديرًا للقمار هناك. يعود دائمًا من كازينو شاربونييير محملا بالقليل من المال أكثر من العادة.

- وأنت لا ترافقينه؟

- أبدًا. ما عدا في البداية حينما تعارفنا. كنت أنتظره لساعات بحلقة غايون. كانت هناك قاعة للانتظار خاصة بالنساء.

هل أساء دراغان الفهم؟ "غايون" (كما شاربونييير) هو اسم كان مألوفًا لديه في الماضي. كانت شنتال تلحق به دون سابق إنذار في الغرفة بساحة غريسيفودان، وكانت تخبره: "يوجد بول في حلقة غايون.. يمكننا قضاء المساء معًا، حتى الليل".

هكذا إذن، لا تزال حلقة غايون موجودة؟ اللهم إذا كانت نفس الكلمات الحقيرة التي سمعتها في شبابك تعود كلازمة رتيبة أو ككلام غير واضح، ولو بعد سنوات عند نهاية حياتك!

- حينما كنت أبقى وحيدة في باريس، كانوا يجبرونني على المشاركة في أمسيات خاصة إلى حد ما. أقبل بسبب جيل؛ فهو دومًا في حاجة إلى المال. والآن ستسوء الأمور لأنه سيجد نفسه دون عمل.

لكن لماذا تورط في هذه العلاقة الحميمة مع جيل أوتوليني وهذه الفتاة المدعوة شنتال غريباي؟ في السابق، كانت اللقاءات الجديدة غالبًا ما تكون عنيفة وصريحة، شخصان يصطدمان في الشارع، كما سيارات اللعب في صباه. هنا، مر كل شيء بسلاسة، دفتر عناوين ضائع، أصوات على الهاتف، موعد في مقهى.. أجل، كان كل شيء ينعم بخفة حلم. كما أن صفحات "الملف" ولدت لديه إحساسًا غريبًا: بسبب بعض الأسماء، وخصوصًا اسم آني آستروند، وبسبب كل هذه الكلمات المكدسة الواحدة فوق الأخرى دون فاصل بين السطور، وجد نفسه في حضور بعض التفاصيل من حياته، لكنها تفاصيل معكوسة في زجاج يحرفها، هذه التفاصيل الممزقة التي تتعقبك

خلال الليالي التي تكون مصابًا فيها بالحمى.

- سيعود غدًا من شاربونييير حوالي منتصف النهار.. سينطلق نحوك، حذار أن تخبره عن لقائنا.

تساءل دراغان إذا كانت صادقة وإذا لم تطلع أوتوليني على محتوى زيارتها له هذه الليلة. اللهم إذا لم يكن أوتوليني هو الذي كلفها بهذه المهمة. على أي، فقد كان على يقين بأنه بوسعه التخلص منهما متى شاء، كما فعل مع الكثير من الأشخاص خلال مسيرة حياته.

وهو يتخذ طابعًا مرحًا قال:

- على العموم أنتما ثنائي من المحتالين.

بدت مندهشة لكلامه. شعر فورًا بالندم. كانت قد قوست ظهرها وظن للحظة أنها ستجهش في البكاء. مال نحوها، لكنها تحاشت نظره.

- كل هذا بسبب جيل.. أنا لا علاقة لي بأي شيء.

ثم بعد لحظة من التردد:

- خذ حذرك.. يصر على لقائك كل يوم. لن يمهلك دقيقة واحدة.. إنه ذلك النوع...

- الذي لن ينفك يطاردك؟

- نعم، هو كذلك.

وقد بدت أنها تعطي لهذه الصفة دلالة أكثر قلقًا مما فعل هو في المرة الأولى.

- لا أدري ما الذي علمه بشأنك. ربما شيء ما في الملف لم أقرأه.. سيستعمل ذلك كوسيلة ضغط.

رنت الكلمة الأخيرة رنة مزيفة في فمها. لا بد أن أوتوليني هو الذي حدثها عن "وسيلة ضغط".

- يريدك أن تساعده على كتابة كتاب.. هذا ما أخبرني به.

- هل أنت متأكدة من أنه لا يسعى وراء شيء آخر؟

ترددت، لحظة.

- لا.

- ربما يطلب مني المال؟

- ممكن.. المقامرون يحتاجون للمال. أجل، سيطلب منك بالطبع المال.

لا بد أنهما ناقشا الموضوع بعد الموعد، ساحة لاركاد. لا شك أنهما كانا في مأزق، تعبير كانت تستعمله شنتال، في الماضي، حينما تتحدث عن بول. غير أن هذا كان دومًا يجد الحلول بفضل المراهنات.

- بعد حين لن يتمكن من أداء إيجار غرفته بساحة غريسيفودان.

نعم، لقد ارتفع ثمن الإيجار خلال السنوات الخمسة والأربعين الأخيرة بساحة غريسيفودان، كان دراغان يقيم خِلسة في غرفة بفضل صديق كان المالك قد أعطاه المفاتيح. في هذه الغرفة، ثمة هاتف على إطاره قفل حتى لا يتم استعماله. ومع ذلك فقد أفلح في إجراء بعض المكالمات.

نبر أخيرًا:

- أنا الآخر، أقمت بساحة غريسيفودان.

نظرت إليه باندهاش، كما لو أنها اكتشفت روابط ما تجمع بينهما. كان على وشك أن يضيف بأن الفتاة التي كانت تلتحق به بين الحين والحين في هذه الغرفة كانت تدعى هي الأخرى شنتال. لكن ما الفائدة من ذلك؟ قالت له:

- إذن، لعلها تكون الغرفة ذاتها التي يقيم فيها جيل، غرفة واطئة السقف، نأخذ المصعد ثم نرتقي سلالم صغيرة.

لكن بالطبع، المصعد في الطابق الأخير معطل، ممر تتوالى على امتداده الغرف، كل واحدة على بابها رقم انمحى نصفه. كان رقم غرفته 5. كان يذكر هذا الرقم وذلك بسبب بول الذي يحرص غالبًا على أن يشرح له إحدى حيله "حول الرقم 5 المحايد".

- وكان لدي أيضًا صديق يلعب القمار في المضامير، وكذلك في كازينو شاربونيير.

بدت مطمئنة لهذه الكلمات وألقت له بابتسامة شاحبة. لعلها ظنت أنه مع وجود العشرات من السنين التي تفصلهما عن بعضهما البعض، فإنهما ينتميان إلى عالم واحد. لكن أي عالم؟

- إذن، فأنت عائدة من إحدى سهراتك؟

شعر فورًا بالندم لأنه طرح عليها السؤال، لكنها على ما يبدو كانت تشعر بالطمأنينة.

- نعم. يتعلق الأمر بثنائي يقيم حفلات من نوع خاص إلى حد ما في شقتهما. سبق لجيل أن اشتغل لديهما لفترة كسائق. يتصلان بـي من حين لآخر ليطلبا حضوري. إنه جيل الذي يريد مني الذهاب. إنهما يدفعان لي.. لا يمكنني أن أقوم بشيء آخر.

كان يصغي لها دون أن يجرؤ على مقاطعة سيولة دفقها. لعلها لم تكن تخاطبه هو ونسيت أمر وجوده. لا بد أن الوقت قد تأخر كثيرًا. الخامسة صباحًا؟ سيطلع النهار قريبًا ويبدد الظلال. حينها سيجد نفسه من جديد وحيدًا في مكتبه عقب حلم سيئ. لا، لم يفقد أبدًا دفتر عناوينه. فلا جيل ولا جوزفين غريباي التي صارت تدعى شنتال توجد فعلاً.

- بالنسبة لك أيضًا الآن، سيكون أمر التخلص من جيل صعبًا. لن ينفك يطاردك.. بوسعه انتظارك عند باب بنايتك.

تهديد أم تحذير؟ خلال الأحلام التي كانت تراوده، فكر دراغان، لا يدري المرء تمامًا كيف يتصرف. حلم؟ سنرى، عند طلوع النهار. ومع ذلك، هناك، قبالته، لم يكن هناك ما يشير إلى أنها شبح. لن يعرف إذا ما كان المرء يسمع أصواتًا خلال الأحلام، لكنه كان يصغي جيدًا إلى الصوت الأجش لشنتال غريباي.

- لدي نصيحة لك: لا تجب أبدًا على مكالماته الهاتفية.

مالت نحوه وأخذت تحدثه بصوت خافت، كما لو أن جيل أوتوليني يقف خلف الباب.

- يجب أن تترك لي رسائل على هاتفي الخلوي. حينما لا أكون برفقته، سأتصل بك. سأطلعك على ما ينوي القيام به. على هذا النحو، يمكنك تجنبه.

يقينًا، هذه الفتاة طافحة بالعناية، لكن دراغان كان يرغب أن يشرح لها أنه سيجد طريقه وحده، فقد سبق له أن صادف في حياته أشباه أوتوليني. يعرف الكثير من المباني في باريس التي تتوفر على مخارج مزدوجة كان بفضلها يتجنب الأشخاص. وهكذا، حتى يعطي الانطباع بأنه غائب، حدث له غالبًا أن ترك غرفته دون إنارة، بسبب النافذتين اللتين تطلان على الشارع.

- لقد أعرتك كتابًا وأنا أدعي بأن جيل هو صاحبه.. الخيَال المتسكع.

كان قد نسي أمر هذا الكتاب. كان قد تركه في ملف من الورق الأحمر المقوى، وهو يخرج النسخ المصورة.

- هذا ليس صحيحًا. يتظاهر جيل أنه من ألف هذا الكتاب، وذلك لأن كاتبه يحمل الاسم ذاته كما جيل، لكنهما لا يحملان نفس الاسم الشخصي. ناهيك أن هذا الشخص كان قد قضى نحبه.

أخذت تنقب في الحقيبة البلاستيكية التي كانت قد وضعتها إلى جانبها على الأريكة. أخرجت فستان الساتان الأسود الموشى بطائري سنونو أصفرين، والذي سبق لدراغان أن لمحه في غرفتها بشارع شارون.

- لقد نسيت حذائي ذا الكعب لدى هؤلاء الأشخاص.

رد دراغان:

- سبق لي أن رأيت هذا الفستان.

- كلما ذهبت عند هؤلاء الأشخاص في الأمسيات، يطلبون مني ارتداءه.

- فستان غريب..

- كنت قد عثرت عليه داخل درج قديم بغرفتي. هناك علامة في الخلف: "سيلفي روزا. خياطة الموضة. شارع إستيل. مارسيليا".

- لعلك كنت ترتدينه في حياة سابقة.

كان قد قال لها الشيء ذاته، البارحة بعد الظهر، في غرفة شارع شارون.

- أتظن ذلك؟

- مجرد إحساس، بسبب العلامة القديمة جدًّا.

نظرت هي الأخرى إلى العلامة بارتياب. بعد ذلك وضعت الفستان، إلى جانبها، على الكنبة.

- انتظري.. سأعود.

غادر المكتب حتى يتأكد من أنه لم يترك ضوء المطبخ مشتعلاً. كانت نافذة هذه الغرفة تطل على الشارع. أجل، لقد كان الضوء مشتعلاً. أطفأ النور وانتصب عند النافذة. قبل قليل، تخيل أن أوتوليني يقف في حالة ترقب بالخارج. تراودك مثل هذه الأفكار في أوقات متأخرة جدًّا، حينما تكون مستيقظًا، أفكار كانت تجوس بخلدك في الماضي، وأنت طفل، لكي تبث الرعب في نفسك. لا أحد. لكن يمكن أن يختفي وراء النافورة أو، على اليمين، وراء إحدى أشجار الساحة.

بقي لمدة مسمرًّا في مكانه، واقفًا باستقامة، الذراعان مضمومتان. لم يلمح أي أحد في الشارع. ولم تمر أي سيارة. لو فتح النافذة، لتناهى إليه نشيش النافورة، ولتساءل إذا لم يكن في روما بدل باريس. روما التي توصل منها مرة ببطاقة بريدية من آني آستروند، آخر دليل على وجودها على قيد الحياة.

حينما عاد إلى مكتبه، كانت ممدة على الكنبة، وهي ترتدي هذا الفستان الغريب من الساتان الأسود والموشى بطائري سنونو أصفرين. شعر للحظة بالارتباك. هل كانت ترتدي هذا الفستان حينما فتح لها الباب؟ لكن لا. كان قميصها وسروالها الأسود مكورين على أرضية الغرفة إلى جانب شباشبها. كانت عيناها مغمضتين ونفسها منتظمًا. هل تتظاهر بالنوم؟

غادرت حوالي منتصف النهار وبقي دراغان بمفرده، كما العادة، في مكتبه. كانت تخشى أن يكون جيل أوتوليني قد عاد من السفر. حينما كان يذهب إلى كازينو شاربونييير، كان يستقل أحيانًا القطار المتجه إلى باريس في ساعة مبكرة جدًّا يوم الاثنين صباحًا. من خلال النافذة، شاهدها وهي تبتعد مرتدية قميصها وسروالها الأسود. لم تكن تحمل الحقيبة البلاستيكية. كانت قد نسيتها على الأريكة إضافة إلى الفستان. استغرق دراغان طويلاً قبل أن يجد بطاقة الزيارة التي كانت قد أعطتها له، بطاقة زيارة غدًا ورقها أصفر. غير أن رقم الهاتف الخلوي لا يجيب. ستتصل به في نهاية المطاف، ما أن تنتبه إلى أنها نسيت الفستان.

أخرجه من الحقيبة ونظر من جديد إلى العلامة: "سيلفي روزا. خياطة الموضة. شارع إستيل. مارسيليا". استثارت هذه العلامة اهتمامه، ولو أنه لا يعرف شيئًا عن مدينة مارسيليا. سبق له أن قرأ هذا العنوان، أو سمع هذا الاسم. حينما كان أصغر سنًّا، كان بوسع هذا النوع من الألغاز، التي تبدو ظاهريًّا تافهة، أن تشغله للعديد من الأيام، وهو يبحث لها دون كلل عن جواب. حتى لو تعلق الأمر بنقطة صغيرة جدًّا، كان ينتابه إحساس بالقلق والفقدان ما دام لم يربطها بالكل، كقطعة مفقودة من لغز. أحيانًا يتعلق الأمر بجملة أو ببيت شعر يبحث عن كاتبه، وأحيانًا، باسم فقط. "سيلفي روزا. خياطة الموضة. شارع إستيل. مارسيليا". أغمض جفنيه وحاول أن يركز انتباهه. مرت في ذهنه كلمة بدت له على صلة بهذه العلامة: "الصينية". يجب التحلي بالصبر للغوص في مياه عميقة لاكتشاف الرابط بين "سيلفي روزا" و"الصينية"، لكنه منذ سنين قليلة لم يعد يتوفر على القوة اللازمة لمباشرة مثل هذه الأعمال. لا، لقد أصبح عجوزًا جدًّا، يفضل السباحة على الظهر.. "الصينية".. بسبب الشعر الأسود والعينين المغوليتين إلى حد ما لهذه المدعوة شنتال غريباي؟

جلس إلى مكتبه. هذه الليلة، لم يلاحظ الأوراق التي توجد في فوضى والتشطيبات بالقلم الأزرق. فتح الملف من الورق المقوى الذي كان قد وضعه بجانب الهاتف، وأخذ الكتاب الذي يوجد هناك، الخيّال المتسكع. كانت الطبعة جديدة لمؤلف تعود حقوق تأليفه إلى ما قبل الحرب. كيف كان بوسع جيل أوتوليني أن يكون بهذه الوقاحة، أو السذاجة، ليزعم أنه مؤلف هذا الكتاب؟ أغلق الكتاب وألقى نظرة على الأوراق أمامه. خلال قراءته الأولى، كان قد أهمل بعض الجمل نظرًا لتداخلها الواحدة بالأخرى.

من جديد، أخذت الكلمات تتراقص أمام ناظريه. هناك على ما يبدو تفاصيل أخرى بشأن آني آسترواند، لكنه كان يشعر بالإنهاك بحيث لم يكن قادرًا على الاطلاع عليها. سيقوم بذلك لاحقًا، ما بعد الظهر، وهو مرتاح. اللهم إذا قرر أن يمزق الأوراق، ورقة بعد ورقة. أجل، سيقرر في أمر ذلك لاحقًا.

في اللحظة التي كان يرتب فيها "محتويات" الملف من الورق المقوى، وقع نظره على صورة الطفل التي كان قد غفل عن أمرها. قرأ على ظهرها: "3 نسخ. طفل مجهول الهوية. البحث والإمساك بآسترواند. المركز الحدودي فانتيميل. الاثنين 21 تموز 1952". نعم، لقد كانت صورة مكبرة لنسخة، كما ظن البارحة في غرفة بشارع شارون.

لم يستطع أن يشيح نظره عن هذه الصورة، وتساءل لماذا نسيها ضمن أوراق "الملف"؟ أثمة شيء ما يزعجه، حجة دامغة حسب التعبير القانوني، وأنه هو، دراغان، سيرغب في إبعادها عن ذاكرته؟ شعر بنوع من الدوار، وخز عند ذؤابات شعره. هذا الطفل، الذي جعلته عشرات السنين على مسافة بعيدة لدرجة جعلت منه شخصًا غريبًا، كان عليه أن يعترف بأنه هو.

يومه الأحد، في خريف آخر غير الخريف الذي شهد فصل ترومبلاي، خريف بعيد أيضًا، توصل دراغان برسالة، على عنوانه بساحة غريسيفودان. مر أمام سكن الحارسة في اللحظة التي كانت فيها الأخيرة توزع الرسائل.

"أظن أنك أنت جون دراغان". قالت ثم مدت له رسالة كتب اسمه على ظرفها بالمداد الأزرق. لا قِبل له برسائل على هذا العنوان. لم يتعرف على الخط، كتابة كبيرة جدًّا تملأ حروفها كل جنبات الظرف: جون دراغان، 8، ساحة غريسيفودان، باريس. لم يتسع المكان لكتابة رقم المقاطعة. على ظهر الظرف، اسم وعنوان: أ. آستروند، 18، شارع آلفريد دوهودونك، باريس.

للحظات، لم يثر لديه هذا الاسم أي شيء. ترى هل السبب في ذلك يعود إلى الحرف الأول "أ"، الذي يخفي الاسم الشخصي؟ لاحقًا، سيُحدث نفسه بأن شعورًا بالقلق راوده، ذلك أنه تردد في فتح الرسالة. سار حتى حدود نوي ولوفالوا، في هذه المنطقة حيث سيتم الإتيان، بعد سنتين أو ثلاث سنوات، على المرآب والمنازل السفلية لتشييد أطراف المدينة. آستروند. كيف لم يدرك، في اللحظة ذاتها، بمن يتعلق الأمر؟

عاد أدراجه ودخل المقهى الذي يقع أسفل أحد المباني. حينما جلس، أخرج الرسالة من جيبه، وطلب عصير ليمون، ثم سكينًا. فتح الرسالة بواسطة السكين، ذلك أنه كان يخشى إذا ما قام بذلك بيديه أن يمزق العنوان على ظهر الظرف. لم تكن تحتوي الرسالة سوى على ثلاث صور. من خلال الصور الثلاثة، تعرف على نفسه، الطفل. يذكر الظهيرة التي التقطت فيها هذه الصور، في محل، بعد جسر سانت ميشيل، قبالة قصر العدالة. منذ ذلك الحين، كان يمر غالبًا أمام هذا المحل الذي ظل تحديدًا كما كان سابقًا.

كان عليه أن يجد هذه الصور الثلاث ليقارنها بالصورة المكبرة التي تشكل جزءًا من "ملف" أوتوليني. هل توجد في الحقيبة التي راكم فيها الرسائل والأوراق التي تعود على الأقل لأربعة سنوات خلت، والتي، صدفة، فقد مفتاحها؟ لا جدوى من ذلك. لقد كانت فعلاً الصور ذاتها. "طفل مجهول الهوية. البحث والإمساك بآستروند. المركز الحدودي فانتيميل. الاثنين 21 تموز 1952". كان يجب الإمساك بها وتفتيشها في اللحظة التي كانت تهم فيها بعبور الحدود.

كانت قد قرأت روايته سواد الصيف، وبالتالي تعرفت على فصل من هذا الصيف. وإلا لماذا كتبت له بعد مرور خمس عشرة سنة على ذلك؟ لكن كيف علمت بعنوانه المؤقت؟ مادام أنه نادرًا ما يقضي الليل بساحة غريسيفودان. كان يقضي الوقت الأكثر ضياء في غرفة بشارع كوستو وحي ساحة بلانش.

لم يكن قد كتب هذا الكتاب سوى على أمل أن تبعث له بإشارة ما. كما أن كتابة كتاب ما، لا تعدو أن تكون بالنسبة له سوى إرسال نداءات ضوئية أو إشارات مورس باتجاه أشخاص معينين يجهل ما حل بهم. كان يكفي أن ينثر أسماءهم جزافًا على الصفحات، وأن ينتظر التوصل بأخبارهم في النهاية. لكن في حالة آني آستروند، لم يورد اسمها، وقد أجبر على اللجوء إلى التمويه. من المحال أن تتعرف على نفسها في أي من الشخوص. لم يدرك أبدًا معنى أن يضع المرء في رواية ما كائنًا له أهمية بالنسبة له. ما أن يندس بين ثنايا الرواية، كما يعبر المرء مرآة، فإنه سيفلت منك إلى الأبد. لم يوجد أبدًا بالفعل. لقد تم اختزاله إلى العدم.. من الواجب العمل وفق طريقة أكثر دقة. هكذا، في سواد الصيف، فإن الصفحة الوحيدة من الكتاب التي يمكن أن تثير انتباه آني آستروند هي المشهد حيث تدخل المرأة والطفل إلى محل للصور الأوتوماتيكية بشارع بالي. لم يفهم لماذا دفعته إلى الكشك. طلبت منه أن ينظر بتركيز إلى الشاشة وأن يبقي رأسه ثابتًا. سحبت الرداء الأسود. كان يجلس على كرسي دون مسند. شعر بالدوار بسبب الضوء وأغمض عينيه. سحبت من جديد الرداء الأسود، وغادرت الكشك. انتظرا أن تخرج الصور من الفتحة. وكان عليه أن يعيد العملية كرّة أخرى؛ ذلك أن عينيه كانتا مغمضتين في الصور. بعد ذلك، اصطحبته لتناول مشروب الرمان في مقهى مجاور. سارت الأمور على هذا النحو. كان قد وصف المشهد بكل دقة، وكان يعلم بأن هذا المقطع لا يتطابق مع باقي أجزاء الرواية. لقد كان جزءًا من الواقع مرره خِلسة، إحدى الرسائل الشخصية التي ينشرها المرء في الإعلانات الصغيرة بالجرائد، والتي لا يمكن فك شفرتها سوى من طرف شخص واحد.

حوالي نهاية الزوال، فوجئ دراغان لأنه لم يتوصل بمكالمة هاتفية من شنتال غريباي. ومع ذلك، لا بد أنها فطنت إلى نسيانها للفستان الأسود. اتصل بها على هاتفها الخلوي، لكن دون جدوى. بعد الإشارة، الصمت. ها أنت تصل إلى حافة جرف لا يوجد بعده سوى الفراغ. تساءل إذا ما زال الرقم الهاتفي صالحًا أو أن شنتال غريباي قد أضاعت هاتفها، أو إذا ما كانت تزال على قيد الحياة!

كما لو عن طريق العدوى، أظهر شكًّا بشأن جيل أوتوليني. نقر على لوحة الحاسوب: "وكالة سويرتز، باريس". لا توجد أي وكالة سويرتز في باريس، أو في حي محطة سانت لازار أو في أي مقاطعة أخرى. لم يكن الكاتب المزعوم لمؤلف الخيّال المتسكع سوى موظف شبح لدى وكالة خيالية.

أراد أن يعرف إذا ما ورد اسم أوتوليني في ساحة غريسيفودان، لكن، ضمن كل الأسماء التي تظهر على الأرقام الثمانية للساحة لا يوجد ولو أوتوليني واحد. على أي حال، الفستان الأسود يقعى هناك، على ظهر الكنبة، دليل على أن ما راوده لم يكن حلمًا. نقر، جزافًا، "سيلفي روزا. خياطة الموضة. شارع إستيل. مارسيليا"، لكن البحث أسفر فقط عن "روتوشات روزا، 18، شارع سوفاج، 681000 مولهاوس". منذ سنوات قليلة، لم يعد يستعمل هذا الحاسوب إلا لمامًا حيث لم يكن يقدم له النتائج المرجوة على أبحاثه. الأشخاص القليلون الذين يود أن يجد طريقهم تمكنوا من الإفلات من قبضة هذا الجهاز. لقد انسلوا عبر ثقوب الشبكة؛ ذلك أنهم ينتمون إلى مرحلة أخرى، وأنهم ليسوا أطفال المذبح. يذكر أباه الذي بالكاد عرفه، والذي كان يخبره بصوت عذب: "سأحبط عزيمة عشرة قضاة تحقيق". لا أثر لأبيه في الحاسوب. ولا تورستيل أو بيران دو لارا اللذين نقر اسميهما على اللوحة، البارحة، قبل وصول شنتال غريباي. في حالة بيران دو لارا، كانت النتيجة كالمعتاد: العديد من الأشخاص الذين يحملون اسم بيران على الشاشة، ولن تكفي ساعات الليل كلها للإحاطة بكل القائمة. الأشخاص الذين يود أن يعرف أخبارهم يتوارون وراء مجموعة من الهويات المجهولة، أو وراء شخصية مشهورة تحمل نفس الاسم. وعندما ينقر على اللوحة سؤالاً مباشرًا: "هل لا يزال جاك بيران على قيد الحياة؟ إذا كان الجواب نعم، أعطني عنوانه"، يبقى الحاسوب عاجزًا عن الجواب، ويشعر المرء عبر ملايين الخيوط التي تربط الجهاز بشحنات كهربائية بمرور تردد ما، قلق ما. أحيانًا، تجدُ نفسك تائهًا بين طرقات خاطئة: "آستروند" ثمة بعض النتائج في السويد، والعديد من الأشخاص الذين يحملون هذا الاسم يتجمعون في مدينة غوتبورغ.

كان الجو حارًّا، وسيستمر هذا الصيف الهندي حتى شهر تشرين. قرر أن يخرج بدل أن ينتظر في مكتبه، كما العادة، غروب الشمس. بعد قليل، حينما يعود، سيحاول أن يفك الشيفرة بواسطة عدسة مكبرة النسخ المصورة للصفحات التي قرأها البارحة بسرعة كبيرة. هكذا قد يكون بوسعه أن يحظى بفرصة معرفة شيء ما عن آني آستروند. تحسر لأنه لم يطرح عليها هذه الأسئلة حينما التقى بها من جديد بعد خمس عشرة سنة عن فصل محل الصور الأوتوماتيكية، لكنه أدرك

بسرعة كبيرة بأنها لن تحير جوابًا.

بالخارج، تبدى أكثر لا مبالاة قياسًا بالأيام السابقة. ربما كان من الخطأ الغوص في هذا الماضي البعيد. ما الفائدة؟ لم يفكر فيه منذ سنوات عديدة، مع أن هذه الفترة من حياته كانت تنتهي بأن تتراءى له من خلال زجاج علته القذارة. كان يسمح بانثيال وضوح غامض، لكنه وضوح لا يسعف في التمييز بين الوجوه أو الهيئات. واجهة زجاجية ملساء، نوع من الشاشات الواقية. ربما تمكنَ، بفضل فقدان طوعي للذاكرة، أن يحتمي نهائيًّا من هذا الماضي، أو لعله الزمن الذي خفف من حدة الألوان والأحقاد الحية جدًّا.

هناك، على الناصية، خلال ضوء الصيف الهندي الذي يغدق على شوارع باريس عذوبة لا زمانية، خامره من جديد الإحساس بأنه يسبح على ظهره. هذا الشعور لم يخامره إلا منذ السنة الماضية، وكان يتساءل إذا لم تكن لذلك علاقة بدنو أوان الشيخوخة. عرف، منذ شبابه، هذه اللحظات بين النوم والصحو حيث يسلس المرء القياد لنفسه (غالبًا بعد ليلة من السهاد)، لكن الأمر يختلف اليوم: الشعور بهبوط منحدر على متن عجلة بلا كوابح، حينما يتوقف المحرك. إلى متى؟

تدحرج، يدفعه إلى الأمام الضباب ووزنه. كان يصطدم براجلين يأتيان من الاتجاه المعاكس دون أن ينزاحا بسرعة كافية عن طريقه. اعتذر. لم يكن مسؤولاً عن هذا الخطأ. عادة، كان يبدو أكثر احتراسًا حينما يمشي في الشارع، وكان على استعداد أن ينتقل إلى الناصية الأخرى إذا ما لمح، من بعيد، شخصًا يعرفه والذي قد يتحدث إليه. أدرك أنه نادرًا ما يلتقي المرء بشخص يتطلع فعلاً للقائه مرتين أو ثلاث مرات في الحياة.

كان سيسير بكل طواعية حتى شارع شارون ليحمل الفستان إلى شنتال غريباي، لكنه قد يصادف في طريقه جيل أوتوليني. وماذا إذن؟ لعل هذا سيؤدي إلى فهم أفضل للوجود المرتاب لهذا الشخص. استحضر جملة شنتال غريباي: "سيسرحونه من وكالة سويرتز". لكن لا بد أنها تدرك أن وكالة سويرتز لا توجد في الواقع. ماذا عن الكتاب، الخيّال المتسكع، الذي تعود حقوق تأليفه إلى فترة ما قبل الحرب؟ هل حمل أوتوليني المسودة إلى دار سابليي في حياة سابقة وتحت اسم شخصي آخر؟ يحق لدراغان أن يحظى ببعض الشروح بشأن هذا الموضوع.

كان قد بلغ أقواس بالي رويال. كان يسير دون أن يلوي على شيء. لكنه، وهو يقطع جسر الفنون وساحة اللوفر، كان يخطو على طول طريق كان مألوفًا لديه منذ صباه. كان يحاذي ما يسمى اللوفر الخاص بالأشياء العتيقة، وكان يستحضر، في المكان ذاته، الواجهات الزجاجية للمحلات الكبيرة باللوفر الخاصة بأعياد الميلاد. والآن، وقد توقف وسط رواق بوجولي، كما لو بلغ هدف نزهته، انبثقت ذكرى أخرى كانت متوارية عن الأنظار منذ مدة طويلة، وعلى مسافة بعيدة

جدًّا، بمنأى عن الضوء، بحيث تبدو جديدة. تساءل إذا كانت فعلاً ذكرى أو مجرد لحظة آنية لم تعد تنتمي إلى الماضي، بعد أن انفصلت عنه مثل شعاع حر: كان هو وأمه (خلال المناسبات النادرة التي يكونان فيها معًا) يدخلان إلى محل للكتب واللوحات، وكانت أمه تتحدث إلى رجلين أحدهما يجلس إلى مكتب داخل المحل والآخر يتكئ بمرفقه إلى رخامة المدفئة. غاي تورستيل. جاك بيران دو لارا. مجمدان، هناك، حتى نهاية الزمن. كيف أمكن أنه خلال يوم الأحد ذلك الخريف، حينما عاد من ترومبلاي برفقة شنتال وبول، في سيارة تورستيل، لم يثر لديه هذا الاسم أو بطاقة زيارته حيث تمت الإشارة مع ذلك إلى عنوان المحل أي خاطر؟

في السيارة، قام تورستيل أيضًا بالإشارة إلى "المنزل الواقع بنواحي باريس" حيث وقع نظره عليه، طفلاً، بمنزل آني آسترواند. بقي هناك، هو، دراغان، لمدة سنة تقريبًا. بسانت لو لا فوري. "أذكر طفلاً"، كان تورستيل قد قال ثم أردف: "الطفل، هو أنت، على ما أفترض..". وكان دراغان قد أجابه بجفاف، كما لو أن ذلك لا يعنيه. ذلك الأحد شرع في كتابة سواد الصيف بعد أن ترجل من سيارة تورستيل بساحة غريسيفودان. ولم يخطر بباله ولو للحظة واحدة أن يسأله إذا كان يذكر المرأة التي كانت تقطن في هذا المنزل، بسانت لو لا فوري، "امرأة تدعى آني آسترواند". وإذا عرف عن طريق الصدفة ما صارت إليه.

جلس على مقعد في الحديقة تحت الشمس، بالقرب من أقواس بوجولي. كان عليه أن يسير خلال أكثر من ساعة دون حتى أن يلحظ أن الجو كان أكثر حرارة قياسًا بالأيام الأخرى. تورستيل. بيران دو لارا. لكن بالطبع، لقد التقى ببيران دو لارا آخر مرة، في نفس السنة الموافقة ليوم الأحد الذي شهد فصل ترومبلاي (بالكاد كان عمره واحدًا وعشرين سنة)، وسيقع هذا اللقاء في ليل النسيان البارد (كما تقول الأغنية)، إذا لم يكن الأمر يتعلق بآني آسترواند. ذات مساء، وجد نفسه في مقهى ملتقى الطرق لحدائق الإليزي، والذي تم تحويله إلى مخزن للأدوية بعد ذلك بسنوات. كانت الساعة تشير إلى العاشرة. توقف هُنيهة قبل استئناف سيره باتجاه ساحة غريسيفودان، أو بالأحرى صوب غرفة بشارع كوستو كان قد استأجرها منذ فترة مقابل ستمائة فرنك للشهر.

هذه الليلة لم يدرك في الحال وجود بيران دو لارا أمامه، على السطح.. وحيدًا.

لماذا بادره بالكلام؟ فهو لم يلتق به لأكثر من عشر سنوات، كما أن هذا الرجل لا يمكن أن يتعرف عليه بكل تأكيد. لكنه كان يؤلف كتابه الأول، وكانت آني آسترواند تشغل باله حد المضايقة. ربما يعلم بيران دو لارا أشياء عنها؟

انتصب أمام طاولته. هز الآخر رأسه. لا، لم يتعرف عليه.

- جون دراغان.

- آه.. جون..

هفت في أساريره ابتسامة خفيفة، كما لو أنه انزعج للقاء شخص ما في هذه الساعة، وحيدًا، في مكان كهذا.

- مر زمان، لقد كبرت.. تفضل بالجلوس، جون..

أشار إلى المقعد أمامه. تردد دراغان للحظة. كان الباب الزجاجي للسطح مواربًا. كان يكفي أن يتلفظ بالجملة التي دأب على نطقها: "لحظة وسأعود". ثم يغادر صوب النسائم المنعشة في الليل، وأن يتنفس ملء رئتيه. وخصوصًا أن يتجنب العودة إلى الظل، هناك، الذي سيبقى أبدًا في الانتظار، وحيدًا، على سطح مقهى.

جلس. ترهل وجه بيران دو لارا الذي يشبه وجه تمثال روماني، كما أن خصلات شعره غدت رمادية. كان يرتدي سترة من القطن الأزرق الغامق، خفيفة جدًّا بالنسبة لهذا الموسم. أمامه، كأس من شراب المارتيني وقد انتصف، تعرف عليه دراغان بسبب لونه.

- وأمك؟ مرت سنوات دون أن أتصل بها. كما تعلم، كنا مثل الأخ وأخته.

هز منكبيه، وقد اعترى نظره تعبير قلق.

- لقد تغيبت طويلاً عن باريس.

ظاهريًّا، كان يود أن يفضي له بأسباب هذا الغياب الطويل، لكنه بقي مطرقًا.

- وهل التقيت من جديد بأصدقائك تورستيل وبوب بوغنان؟

ارتسمت الدهشة على محيا بيران لسماع هذين الاسمين على لسان دراغان. الدهشة والارتياب.

- لديك ذاكرة قوية.. هل تذكر هذين الاثنين؟

تفرس في دراغان ببرودة، وقد تضايق الأخير من هذه النظرة.

- لا، لم أعد ألتقي بهما. عجيب كم هي قوية ذاكرة الأطفال! وأنت، هل من جديد؟

شعر دراغان بطعنة المرارة في هذا السؤال. لكن ربما يكون قد أساء الفهم، أو أنه بالنسبة لبيران ليس هذا سوى نتيجة مشروب المارتيني الذي يتجرعه المرء وحيدًا، في العاشرة مساء، في الخريف، على سطح مقهى.

- أحاول أن أؤلف كتابًا.

تساءل لماذا أفضى له بهذا السر.

- آه كما في الزمن الذي كنت تغار فيه من مينو دغوي؟

كان دراغان قد نسي هذا الاسم. لكن أجل، إنها البنت الصغيرة التي كانت في عمره والتي أصدرت سابقًا أضمومتها الشعرية: الشجرة، صديقتي.

- إنه لأمر صعب، الأدب. أفترض أنك لا بد أدركت ذلك.

كان صوت بيران دو لارا قد اكتسب نبرة مقتضبة وقعت وقع المفاجأة على دراغان. النزر القليل الذي يعرفه بشأنه وما تحتفظ به ذاكرة الطفولة عنه، ستجعل منه يظن أن هذا الرجل كان بالأحرى شخصًا تافهًا. هيئة شخص يتكئ بمرفقه على رخام المدفآت. هل انتمى مثل أمه

وتورستيل، وربما أيضًا بوب بوغنان، إلى "نادي النغفات"؟

أخيرًا أخبره:

- إذن، بعد كل هذا الغياب الطويل، عدت نهائيًّا إلى باريس؟

هز الآخر منكبيه وألقى نظرة متعالية على دراغان، كما لو أن الأخير أساء له الاحترام.

- لا أدري ماذا تقصد بـ "نهائيًّا"؟

تجاهله دراغان هو الآخر. لقد قال هذا فقط ليشد حبل الحديث. وقد اغتاظ هذا الشخص دون أن يكون ما يدعو لذلك. كانت تحدوه الرغبة لأن ينهض وأن يصرخ في وجهه: "حسنًا، فرصة سعيدة، سيدي". وقبل أن يتجاوز الباب الزجاجي للسطح، سيبتسم له وهو يلوح له بيده مودعًا، كما لو كان على ناصية قطار، لكنه تراجع. عليه التحلي بالصبر. ربما علم شيئًا ما عن آني آستروند.

- كنت تقدم لي نصائح في القراءة.. هل تذكر ذلك؟

جاهد حتى يبدو صوته متأثرًا. وكان هذا صحيحًا، حيث إن هذا الشبح، على أي، كان قد أهداه، حينما كان طفلاً صغيرا خرافات لافونتين ضمن المجموعة ذات الغلاف الأخضر الباهت لأمهات الكتب في سلسلة هاشيت. وبعد مرور وقت قصير على ذلك، نصحه الرجل ذاته أن يقرأ فابريزيو لوبو حينما يصير كبيرًا.

- بالتأكيد، لديك ذاكرة قوية.

صارت النبرة أكثر خشونة، وابتسم له بيران دو لارا. غير أن هذه الابتسامة كانت إلى حد ما متصلبة. مال نحو دراغان:

- سأخبرك بشيء ما.. لم أعد أعرف مدينة باريس التي حييت فيها. كان يكفي خمس سنوات من الغياب، فلدي الشعور بالتواجد في مدينة أخرى.

ضغط على فكيه كما لو في محاولة للحيلولة دون خروج الكلمات من فمه في تدفق فوضوي. لا شك أنه لم يتحدث لأي شخص منذ فترة.

- لم يعد الأشخاص يردون على الهاتف. لا أعلم إذا ما زالوا على قيد الحياة، إذا ما نسوني، أو أنه لم يعد لديهم الوقت للرد على أي اتصال.

صارت الابتسامة دائرة عريضة، وشفّت النظرة حد الرقة. ربما أراد أن يخفف من حزن كلماته، حزن يتناغم جيدًا مع السطح المقفر حيث الإنارة تفسح المجال لكي تعترش مناطق العتمة.

بدا عليه الأسى لأنه أفضى بهذه الأسرار. انتصب مجددًا وأدار رأسه نحو الباب الزجاجي للسطح. ورغم تهدل الوجه والخصلات الرمادية التي تمنح لشعره الآن ميسم شعر مستعار، فقد حافظ على هذا الجمود لتمثال كان غالبًا صورة له منذ عشر سنوات خلت، إحدى الصور النادرة لجاك بيران دو لارا التي يتذكرها دراغان. وقد دأب أيضًا أن يميل غالبًا برأسه جانبًا ليتحدث إلى مخاطبيه، كما يحدث الآن. لا بد أن شخصًا ما أخبره في الماضي أن لديه نظرة جانبية جميلة، لكن كل أولئك الذين أخبروه بذلك كانوا قد لقوا حتفهم.

سأله دراغان:

- هل تسكن في الحي؟

من جديد مال نحوه وتردد في الجواب.

- ليس بعيدًا عن هنا.. في فندق صغير في حي تيرن.

- يجب أن تعطيني العنوان.

- هل ترغب في ذلك فعلاً؟

- نعم.. سأكون سعيدًا بلقائك مجددًا.

كان يود الآن أن يتطرق إلى جوهر الموضوع، لكنه شعر بخوف ما. هكذا ازدرد ريقه وتنحنح ليصفو صوته.

- أردت أن أطلب منك معلومة.

كان صوته باهتًا. لاحظ المفاجأة على وجه بيران دو لارا.

- يتعلق الأمر بشخص ربما عرفته.. آني آستروند.

كان قد نطق هذا الاسم بقوة كبيرة وهو يضغط على المقاطع، مقطعًا مقطعًا، كما على الهاتف حينما تكون وشوشة على وشك أن تخنق صوتك.

- أعد لي الاسم.

- آني آستروند.

كان تقريبًا قد زعق بالاسم وقد بدا له الأمر كما لو أنه وجه نداء استغاثة.

- لقد أقمت لديها مدة طويلة في منزل في سانت لو لا فوري.

كانت الكلمات التي نطقها للتو واضحة جدًّا وذات جرس معدني خِلال صمت هذا السطح، غير أنه قدر أن ذلك كان دون جدوى.

- نعم.. أرى.. لقد ذهبنا لزيارتك مرة، هناك، برفقة أمك.

أطرق، دون أن ينبس بكلمة أخرى حول الموضوع. لا يتعلق الأمر سوى بخاطر بعيد لم يعد يعنيه البتة. من الواجب عدم الاعتماد على الأشخاص للإجابة على أسئلتك.

ومع ذلك، فقد أضاف:

- امرأة في ريعان الشباب.. ذلك النوع الذي يرقص في الملاهي. بوب بوغنان وتورستيل كانا يعرفانها أفضل مني. وأيضًا أمك. أظن أنها قضت مدة في السجن، ولماذا تهتم بأمر هذه المرأة؟

- لقد كانت مهمة جدًّا بالنسبة لي.

- آه، حسنًا.. إذن، ينتابني الأسى لأنني عاجز أن أكون مفيدًا لك. لقد سمعت بشكل غير واضح أمك وبوب بوغنان يتحدثان عنها.

اكتسى صوته نبرة متعالية. تساءل دراغان إذا لم يكن يحاكي شخصًا تأثر به في شبابه، وقد تمرن على ذلك خلال المساء أمام مرآة، ليحاكي الحركات والأصوات، شخص ما مثل بالنسبة له، وهو طفل طيب ساذج إلى حد ما، كل الأناقة الباريسية.

- ما يمكنني أن أخبرك به هو أنها قضت فترة في السجن.. فعلاً لا أعلم أي شيء آخر عن هذه المرأة.

انطفأت أضواء النيون على السطح حتى يتنبه هذان الزبونان الأخيران أن المقهى سيغلق أبوابه. بقي بيران دو لارا صامتًا في العتمة. تذكر دراغان قاعة السينما تلك بمونبارناس حيث كان قد دخل المساء السابق ليحتمي من المطر. لم تكن الصالة دافئة، كما أن المتفرجين القلائل لم ينزعوا معاطفهم. غالبًا، في السينما، يغمض العينين. فقد كانت أصوات الفيلم وموسيقاه أكثر إيحاء من الصورة. يستحضر جملة من فيلم ذلك المساء، قيلت بصوت باهت، قبل أن تتألق الأضواء من جديد، وقد تخيل أنه هو ذاته من يتلفظ بها: "حتى أصل إليك، يا له من طريق غريب كان علي أن أسلكه"!

شخص ما ربت على كتفه:

- أيها السادة، سنغلق المقهى. لقد حان وقت انصرافكما.

كانا قد قطعا الشارع وهما يسيران في الحديقة حيث كانت تنتصب، خلال النهار، أكشاك سوق الطوابع البريدية. كان دراغان يتردد في الاستئذان من بيران دو لارا. توقف هذا الأخير، كما لو أن فكرة ما خطرت بباله على حين غرة:

- ليس بوسعي أن أخبرك حتى لماذا قضت فترة في السجن.

مد له يدًا ضغط عليها دراغان مودعًا.

- إلى موعد قريب، آمل.. أو ربما إلى لقاء في عشر سنوات.

لم يعرف دراغان بما يرد عليه وبقي هناك، على الناصية، وهو يتابعه بعينيه. ابتعد الآخر في سترته الخفيفة جدًّا. كان يخطو تحت الأشجار بخطا بطيئة جدًّا، وفي اللحظة التي كان فيها على وشك أن يقطع شارع ماريغني، كاد يفقد التوازن، تدفعه إلى الأمام هبة ريح وقبضة أوراق ميتة.

عند عودته إلى البيت، استمع إلى المجيب الآلي ليتحقق ما إذا كانت شنتال غريباي أو جيل أوتوليني قد تركا أي رسالة. لا شيء. كان الفستان الأسود الموشى بطائري السنونو ما يزال رابضًا على ظهر الكنبة، وكان الملف من الورق الليموني المقوى يترامى في المكان ذاته على مكتبه، بالقرب من الهاتف. أخرج النسخ المصورة منه.

لا شيء يذكر، للوهلة الأولى، حول آني آسترواند. نعم. مع ذلك، تمت الإشارة إلى عنوان المنزل بسانت لو لا فوري: "15، شارع ليرميتاج"، يليه تعليق يفيد أنه تم الحجز عليه. حدث ذلك في السنة ذاتها حينما أخذته آني إلى محل الصور الأوتوماتيكية، وحيث خضعت لتفتيش على المركز الحدودي بفانتيميل. كما ترد إشارة إلى أخيها بيير (6، شارع لافيرييز، باريس التاسعة) وروجر فانسون (12، شارع نيكولاس شوكي، باريس السابعة عشرة)، والذي كان يدور الحديث حول إذا لم يكن "راعيها".

كما نجد أن منزل سانت لو لا فوري كان مسجلاً تحديدًا باسم روجر فانسون. ثمة أيضًا صورة لتقرير أقدم بكثير لمديرية الأمن القضائي، كتيبة دولية، التحريات والاستعلامات، بخصوص المدعوة آستروند آني المقيمة بفندق، 46، شارع نوترو دام دو لوريت، حيث كتب "معروفة في ليتوال كليبر". غير أن كل هذا كان مشوشًا، كما لو أن شخصًا ما (أوتوليني؟) وهو يعيد نقل وثائق الأرشيف بسرعة كبيرة أهمل بعض الكلمات، ووضع جنبًا إلى جنب بعض العبارات جزافًا، دون أي رابط يذكر بينها.

هل سيكون فعلاً من المفيد الغوص من جديد في خضم هذه الكتلة السميكة واللزجة؟ وهو يواصل قراءته، انتاب دراغان إحساس شبيه بإحساس البارحة حينما كان يحاول تفكيك الصفحات ذاتها: عبارات تلتقطها وأنت بين النوم واليقظة، والكلمات القليلة التي تذكرها في الصباح لا معنى لها. كل هذا، تتخلله عناوين محددة: 15، شارع ليرميتاج، 12، شارع نيكولاس شوكي، 46، شارع نوترو دام دو لوريت، لا شك للعثور على علامات يمكن التشبث بها في هذه الرمال المتحركة.

كان على يقين بأنه سيمزق هذه الصفحات في الأيام القادمة، وبأن ذلك سيجعله يشعر بالراحة. حتى ذلك الحين، سيتركها على حالها على مكتبه. ربما ستمكنه قراءة أخيرة من الكشف عن علامة غابرة ستضعه على طريق آني آستروند.

عليه أن يجد الظرف الذي كانت قد أرسلته له، في سالف الأيام، مع الصور الأوتوماتيكية. في اليوم الذي توصل به، كان قد نظر إلى الدليل السنوي حسب الشوارع. في 18 من شارع ألفريد دوهدونك، لا توجد أي آني آستروند. وبما أنها لم تشر إلى رقمها الهاتفي، فلم يبق له سوى الكتابة لها.. لكن هل سترد على رسالته؟

هذا المساء، في مكتبه، بدا له كل هذا بعيدًا جدًّا. منذ عشر سنوات انتقلنا إلى قرن جديد. ومع ذلك، عند منعطف شارع، عند اللقاء بوجه (وقد كان غالبًا ما يكفي أن يباغته حديث أو نوتة موسيقية)، كان الاسم، آني آستروند، يعود إلى ذاكرته. لكن كل شيء صار يتلاشى شيئًا فشيئًا، يرف في حالة قاتمة مقبضة، علامة ضوئية تخبو فورًا.

تردد أن يكتب لها أو أن يرسل لها برقية. 18، شارع ألفريد دوهدونك. الرجاء إعطاء رقم الهاتف. جون. أو كما كان الأمر متداولاً حينها. كما أنه كان قد قرر أن يتجه إلى هذا العنوان، هو الذي لا يحب الزيارات دون سابق إنذار، أو تلك التي تباغتك بغتة في الشارع.

كان ذلك في الخريف، يوم لا توسان "كل القديسين". كانت الشمس غائمة، تلك الظهيرة. وللمرة الأولى في حياته، لم تثر لديه كلمة "توسان" شعورًا بالأسى. ساحة بلانش، استقل قطار الأنفاق. كان عليه أن يغير القطار مرتين. بمحطة إيتوال وتروكاديرو. يوم الأحد وأيام الأعياد، تستغرق القطارات الكثير من الوقت للوصول، وكان يقول في نفسه إنه لن يتمكن من رؤية آني آسترواند في يوم آخر كما في أي يوم من أيام الأعياد. عدَّ السنوات: خمس عشرة سنة، منذ الظهيرة التي اصطحبته فيها إلى كشك الصور. يذكر صباحين بمحطة ليون. كانا قد صعدا القطار معًا، قطارًا يغص بالمسافرين خلال اليوم الأول من أيام عطل نهاية السنة الدراسية.

وهو ينتظر القطار بمحطة تروكاديرو، انتابه شك ما: لعله لم يكن في باريس اليوم. بعد خمس عشرة سنة، لم يعد يذكرها.

ينتهي الشارع بسياج. خلف السياج، أشجار حدائق رانيلاغ. ولا سيارة على طول الرصيف. الصمت. كما لو أن لا أحد يقطن هنا. كان 18 هو الرقم الأخير، في نهاية الحي، على اليمين، قبل السياج والأشجار. بناية بيضاء، أو بالأحرى منزل كبير من طابقين. بباب المدخل، مجيب هاتفي. واسم، إلى جانب الزر الوحيد لهذا المجيب الهاتفي: فانسون.

بدت له البناية مهجورة، كما الشارع. ضغط على الزر. سمع وشوشة تنبعث من المجيب الهاتفي وما يمكن أن يكون هسيس الريح وهو يتسرب عبر الأوراق. مال وهو يتلفظ مرتين، وهو يضغط جيدًا على الحروف: جون دراغان. أجابه صوت امرأة نصف مخنوق بسبب ضوضاء الريح: "الطابق الأول".

ببطء انفتح الباب الزجاجي، ووجد نفسه في ممر جدرانه بيضاء يضيؤه مصباح جانبي. لم يستقل المصعد ولكنه صعد السلالم التي كانت تئز تحت قدميه. حينما وصل إلى مدخل الطابق الأول، كانت تنتصب في فتحة الباب، يتوارى نصف وجهها خلف الباب. بعد ذلك سحبت المصراع وحدقت فيه كما لو أنها تجد صعوبة في التعرف عليه.

- تفضل، صغيري جون..

صوت خجول، لكنه أجش قليلاً، الصوت ذاته منذ خمس عشرة سنة. كما أن الوجه والنظرة بقيا على حالهما. كان شعرها أقصر. كان يتدلى حتى الكتفين. كم كان عمرها الآن؟ ستة وثلاثون

سنة؟ في الردهة، كانت تتفرس فيه دائمًا بفضول. كان يبحث عن شيء ليكسر به جدار الصمت:

- لم أكن أعلم أنه يجب ضغط الزر حيث كتب "فانسون".

- أدعى فانسون الآن. كما أنني غيرت اسمي الشخصي، خمن.. آغنيس فانسون.

قادته إلى الغرفة المجاورة التي لا بد أنها كانت تستعمل كصالون، والتي كان أثاثها يتكون فقط من أريكة يوجد إلى جانبها شمعدان. كوة كبيرة زجاجية يرى من خلالها أشجار لم تسقط عنها بعد أوراقها. كانت الشمس ما تزال عالقة بذيل السماء، وانعكاسات الشمس على الأرضية وعلى الجدران.

- اجلس، صغيري جون..

ثم جلست في الجانب الآخر من الكنبة، كما لو لتتفحصه عن كثب.

- لعلك لا تذكر روجي فانسون؟

ما أن تلفظت بهذا الاسم حتى تذكر فعلاً سيارة أمريكية ذات غطاء يمكن سحبه، والتي كانت أمام المنزل بسانت لو لا فوري، وعلى المقود ينتصب رجل ظنه، للوهلة الأولى، أمريكيًّا هو الآخر بسبب قامته الفرعة ولهجة خفيفة حينما يتكلم.

- لقد تزوجت منذ سنوات قليلة بروجي فانسون.

ثم نظرت إليه وقد علت محياها ابتسامة قلقة. أترى ليغفر لها هذا الزواج؟

- لا يتواجد كثيرًا بباريس.. أظن أنه سيكون سعيدًا بلقائك من جديد. لقد اتصلت به سابقًا وأخبرته أنك ألفت كتابًا.

ذات زوال، بسانت لو لا فوري، جاء روجي فانسون لاصطحابه عند بوابة المدرسة في سيارته الأمريكية ذات الغطاء الذي يمكن سحبه. انسابت السيارة على طول شارع ليرميتاج دون أن يسمع هدير محركها.

- لم أُنه بعد قراءة كتابك.. لقد وجدت مباشرة المقطع الخاص بكشك الصور. كما تعلم، فأنا لا أقرأ أبدًا الروايات.

كانت تبدو كمن يود الاعتذار، كما كانت قبل قليل حينما أخبرته عن زواجها بروجي فانسون. لكن لا، لم تكن هناك حاجة لكي تقرأ هذا الكتاب "حتى النهاية"، الآن وهما يجلسان جنبًا إلى جنب على الكنبة.

- لا شك أنك تساءلت كيف تمكنت من الحصول على عنوانك؟ لقد التقيت بشخص كان قد أقلك إلى منزلك في سيارته السنة الماضية.

قطبت جبينها وبدت كما لو أنها تبحث عن اسم. غير أن دراغان أسعفها:

- غاي تورستيل؟

- نعم، غاي تورستيل.

لماذا يلعب الأشخاص الذين لا تشك في وجودهم، والذين تلتقي بهم مرة واحدة في الحياة، في الكواليس، دورًا مهمًّا في حياتك؟ بفضل هذا الشخص، عثر على آني. كان يود أن يشكر هذا الشخص المدعو تورستيل.

- لقد نسيت هذا الشخص تمامًا. لا بد أنه يقطن الحي. لقد تحدث إلي في الشارع وأخبرني أنه كان قد جاء إلى المنزل في سانت لو لا فوري، منذ خمس عشرة سنة.

لا شك أن اللقاء مع تورستيل خلال الخريف الأخير بمضمار السباق هو الذي أنعش ذاكرته. لقد تحدث تورستيل عن المنزل في سانت لو لا فوري. حينما قال تورستيل: "لم أعد أذكر المكان

في نواحي باريس"، وأيضًا "الطفل، كان هو أنت، على ما أفترض". لم يرغب هو، دراغان، في أن يجيب. منذ زمان، لم يعد يفكر لا في آني آستروند ولا في سانت لو لا فوري. ومع ذلك، فإن هذا اللقاء كان قد بعث فجأة إلى الوجود ذكريات كان يحرص، دون أن يكون واعيًا تمامًا، على عدم إيقاظها. وها هي الأمور تتوالى. كانت هذه الذكريات لا تزال حية، حتى إنه شرع ذلك المساء في كتابة روايته.

- أخبرني أنه كان قد التقى بك في مضمار للسباق.

ابتسمت كما لو أن الأمر يتعلق بدعابة.

- آمل ألا تكون مقامرًا.

- لكن لا، على الإطلاق.

هو، مقامر؟ لم يفهم أبدًا لماذا يبقى هؤلاء الأشخاص، في الكازينوهات، طويلاً، يغلفهم الصمت، لا يحركون ساكنًا، وقد اتخذت رؤوسهم شكل الأموات الأحياء. وكل مرة كان بول يحدثه عن الرهانات، بالكاد كان يحافظ على تركيزه.

- المقامرون دائمًا ما تؤول أحوالهم إلى أوضاع كارثية، صغيري جون.

لعلها أدرى بالموضوع. غالبًا ما كانت تعود إلى المنزل في سانت لو لا فوري في وقت متأخر جدًّا، وهو، دراغان، كان يحدث أن يجافيه النوم قبل عودتها. كم يشعر بالراحة حينما يتناهى إليه صوت عجلات سيارتها على الحصى، والمحرك الذي يعلم المرء أنه سيخمد. وخطاها، على طول الممر.. ماذا كانت تفعل في باريس حتى الساعة الثانية صباحًا؟ لعلها كانت تقامر. بعد كل هذه السنوات، والآن وقد صار شخصًا آخر غير الطفل الذي كانه حينها، لشد ما رغب في طرح السؤال عليها.

- لم أفهم جيدًا ما يقوم به هذا السيد تورستيل.. أظن أنه تاجر عاديات في بالي رويال.

على ما يبدو، لم يكن لديها الكثير مما يمكنها أن تخبرني به. كان يود أن يبدد قلقها. لا بد أن الشعور كان متبادلاً، مثل وجود ظل بينهما، لا يمكن لأي واحد منهما أن يتحدث بشأنه.

- إذن حاليًا، أنت كاتب؟

ندت عنها ابتسامة، وقد بدت ابتسامة تنطق بالمفارقة. كاتب. لماذا لا يعترف لها بأنه كان قد كتب سواد الصيف على شاكلة الإعلانات المتعلقة بالبحث عن شخص مفقود؟ بقليل من الحظ، سيثير هذا الكتاب انتباهها، وستبعث بما يدل على أنها لا تزال على قيد الحياة. هذا كل ما دار بخلده حينها. لا أقل ولا أكثر.

أخذ ضوء النهار يخبو لكنها لم تشعل الشمعدان الذي يوجد بجانبها.

- كان علي أن أعلمك بوجودي قبل ذلك، لكن حياتي كانت تتسم بالفوضى إلى حد ما.

كانت قد استعملت صيغة الماضي، كما لو أن حياتها وصلت إلى نهايتها.

- لم أندهش لأنك أصبحت كاتبًا. حينما كنت صغيرًا، بسانت لو لا فوري، كنت تقرأ كثيرًا.

كان دراغان يحبذ لو تحدثه عن حياتها الخاصة، لكنها على ما يبدو ترغب عن ذلك. كانت تجلس جانبًا على الكنبة. استحضر صورة حافظت على وضوح شفاف كل هذه السنوات الضائعة. ذات زوال، آني، في الوضعية ذاتها، الصدر مستقيم، تنظر جانبًا، تجلس إلى مقود سيارتها وهو، طفل، إلى جانبها. كانت السيارة أمام بوابة المنزل، بسانت لو لا فوري. كان قد لمح دمعة، بالكاد يمكن رؤيتها، تنساب على وجنتها اليمنى. قامت بحركة مباغتة من المرفق لمسحها، ثم أدارت المحرك كما لو أن شيئًا لم يقع.

قال دراغان:

- خلال السنة الماضية التقيت بشخص كان يعرفك خلال فترة سانت لو لا فوري.

التفتت نحوه وألقت نحوه بنظرة قلقة.

- من؟

- شخص يدعى جاك بيران دو لارا.

- لا، لا أذكر.. لقد التقيت بالكثير من الأشخاص خلال فترة سانت لو لا فوري.

- ماذا عن بوب بوغنان، ألا يعني لك هذا الاسم أي شيء؟

- لا، لا شيء على الإطلاق.

دنت منه وأخذت تداعب جبينه.

- ماذا يدور في هذا الرأس، صغيري جون؟ أتريد أن تخضعني لتحقيق؟

ثم نظرت إليه مباشرة في العينين. لا يوجد أي تهديد في هذه النظرة. فقط شيء من القلق. من جديد، أخذت تداعب جبينه.

- كما تعلم.. لا أذكر أشياء كثيرة.

تذكر كلمات بيران دو لارا: "أقصى ما يمكنني أن أخبرك به هو أنها قضت فترة في السجن". لو أعاد لها ذلك، لأبدت دهشة كبيرة. ستهز منكبيها وستجيبه: "لا بد أنني اشتبهت له مع شخص آخر"، أو "هل صدقته، صغيري جون؟". ولعلها ستكون صادقة. ينتهي بنا الأمر بنسيان تفاصيل حياتنا التي تقض مضجعنا أو التي تسبب لنا ألما ممضًّا. يكفي أن يسبح المرء على ظهره، وأن يترك العنان لنفسه لتطفو بهدوء على ثبج المياه العميقة، وذلك بإغماض الجفنين. لا، لا يتعلق الأمر دائمًا بنسيان إرادي، كما سبق وأن فسر له طبيب كان قد انخرط معه في الحديث في المقهى، أسفل

تجمعات المباني بساحة غريسيفودان. كان هذا الشخص قد أهداه مؤلفًا صغيرًا كان قد نشره بالمنشورات الجامعية بفرنسا، النسيان.

- هل تريد أن أشرح لك لماذا أخذتك لالتقاط صور أوتوماتيكية؟

شعر دراغان أنها لن تتطرق إلى هذا الموضوع عن طيب خاطر. غير أن المساء كان قد أرخى سدوله، وفي هذه الصالة، يمكن للعتمة أن تسهل البوح بالأسرار.

- الأمر في غاية البساطة.. في غياب والديك، أردت أن آخذك معي إلى إيطاليا. ومن أجل ذلك، كنت بحاجة لجواز السفر.

في الحقيبة الصفراء من الورق المقوى التي تقشر عنها دهانها، والتي كان يجرها منذ مدة من غرفة إلى غرفة، والتي تحتوي على كراسات المدرسة، وبيانات النقط، وبطاقات بريدية توصل بها خلال صباه، والكتب التي كان يقرأها في هذه الفترة: الشجرة، صديقتي، حاوية اللغز، الحصان دون رأس، ألف ليلة وليلة، كان هناك ربما جواز سفر قديم يحمل اسمه، مع الصورة، أحد تلك الجوازات غامقة الزرقة. لكنه لم يفتح أبدًا الحقيبة. كانت مغلقة بالمفتاح، وقد كان قد أضاع ذلك المفتاح كما جواز السفر، لا ريب في ذلك.

- وبعد ذلك، لم أتمكن من اصطحابك إلى إيطاليا. كان علي أن أبقى في فرنسا. قضينا بعض الأيام في لاكوت دازور، ثم عدت إلى منزلك.

كان أبوه قد جاء ليبحث عنه في منزل فارغ، واستقلا قطار العودة إلى باريس. ماذا كانت تريد أن تقصد بـ "منزلك" على وجه التحديد؟ حري به أن ينقب في ذاكرته، فهو لا يملك أدنى ذكرى عما تدعوه اللغة المتداولة "منزله". كان القطار قد وصل، باكرًا جدًّا في الصباح، إلى محطة ليون. وبعد ذلك، عرف سنوات طويلة، لا نهاية لها، من الإقامة في المدرسة الداخلية.

- حينما قرأت مقطع كتابك، بحثت في أوراقي ووجدت الصور الأوتوماتيكية.

كان على دراغان أن ينتظر أكثر من أربعين سنة قبل أن يعرف تفصيلاً إضافيًّا من تفاصيل هذه المغامرة: صور أوتوماتيكية "لطفل مجهول الهوية" تم الإمساك به خلال عملية تفتيش

بالمركز الحدودي لفانتيميل. "كل ما أعرفه عن هذه المرأة"، كان قد أخبره بيران دو لارا، "هو أنها قضت فترة في السجن". إذن، فقد أعادوا لها هذه الصور وأشياء أخرى صودرت خلال عملية التفتيش حينما غادرت السجن. لكن هناك، على هذه الكنبة، إلى جانبها، كان دراغان لا يزال يجهل هذا التفصيل. يعلم المرء، غالبًا في وقت متأخر جدًّا بحيث يتعذر الحديث حوله، فصلاً من فصول حياته كان قريب ما قد أخفاه عنه. هل أخفاه فعلاً عنك؟ لقد نسيه، أو بالأحرى، مع مرور الزمن، لم يعد يفكر فيه. أو، بكل بساطة، لا يجد الكلمات المناسبة ليفضي به.

بابتسامة عريضة قال دراغان:

- أشعر بالأسى لأننا لم نتمكن من الذهاب إلى إيطاليا.

أحس أنها تريد أن تفضي له بشيء ما، لكنها هزت رأسها بهدوء، كما لو لتبعد عنها أفكارًا أو ذكريات سيئة.

- إذن، فأنت تقيم بساحة غريسيفودان؟

- ليس تمامًا. لقد حصلت على غرفة للإيجار في حي آخر.

كان قد احتفظ بمفتاح الغرفة بساحة غريسيفودان التي يوجد مالكها خارج باريس. هكذا، كان يذهب إليها أحيانًا خلسة. كانت إمكانية اللجوء إلى مكانين مختلفين تدفع الطمأنينة إلى قلبه.

- نعم، غرفة بجانب ساحة بلانش.

- بلانش؟

بدا أن هذه الكلمة توحي لها بمنظر مألوف.

- ستأخذني إلى غرفتك في يوم من الأيام، أليس كذلك؟

كان المساء تقريبًا قد حل، فأضاءت الشمعدان. كانا معًا وسط هالة من الضوء، بينما بقيت الصالة غارقة في العتمة.

- كنت أعرف جيدًا حي ساحة بلانش.. هل تذكر أخي بيير؟ كان لديه مرآب هناك.

شاب أسمر. بسانت لو لا فوري، كان يقضي الليلة أحيانًا في الغرفة الصغيرة، على اليسار، أقصى الرواق، في تلك الغرفة التي تطل نافذتها على الساحة والبئر. يذكر دراغان سترته الكندية وسيارته ذات الأحصنة الأربعة. ذات أحد، كان هذا الأخ لآني (خلال كل هذا الوقت، كان قد نسي اسمه الشخصي) قد اصطحبه إلى سيرك ميدرانوز، وبعد ذلك عادا في السيارة ذات الأحصنة الأربعة إلى سانت لو لا فوري.

- لم أعد ألتقي ببيير منذ أن أقمت هنا.

رد دراغان:

- يا له من مكان غريب!

وبعد ذلك أمال رأسه نحو الكوة الزجاجية، شاشة سوداء ضخمة لا يمكن تمييز أوراق الأشجار من خلفها.

- هنا، نحن في الطرف القصي من العالم، صغيري جون. أليس كذلك؟

كان قد تفاجأ منذ قليل من هدوء الشارع والسياج، في الطرف الأقصى، الذي يجعل من هذا الزقاق نهاية السير. حينما يحل الليل، بوسعنا أن نتخيل أن المبنى يوجد رهن وصاية الغابة.

- روجي فانسون هو من استأجر هذا المنزل منذ الحرب. لقد كان تحت الحجز. كان في ملكية أشخاص عليهم أن يغادروا فرنسا. كما تعلم، مع روجي فانسون، الأشياء معقدة إلى حد ما.

كانت تلقبه "روجي فانسون"، ولم تناده أبدًا "روجي" باختصار. هو الآخر، دراغان، خلال سنوات طفولته، كان يحييه وهو يناديه: "صباح الخير، روجي فانسون".

- لن أتمكن من البقاء هنا.. سيؤجرون المنزل لسفارة، أو سيهدمونه. أحيانًا، خلال الليل، ينتابني الخوف حينما أجدني وحيدة هنا؛ فالطابقان السفلي والثاني فارغان، وروجي فانسون لا يكون هنا إلا لمامًا.

كانت تفضل الحديث إليه عن الحاضر، وكان دراغان يتفهم ذلك كثيرًا. كان يتساءل إذا كانت هذه المرأة هي المرأة ذاتها التي عرفها، طفلاً، بسانت لو لا فوري. وهو، من يكون؟ أربعون سنة بعد ذلك، حينما وقعت بين يديه الصورة المكبرة للصورة الأوتوماتيكية، لم يعرف أنه هو، ذلك الطفل.

لاحقًا، أرادت أن تصطحبه لتناول العشاء، في مكان قريب من منزلها، وانتهى بهما المطاف في مطعم بطريق

المبيت. جلسا، في ركن قصي من الصالة، الواحد قبالة الآخر.

أخبرها دراغان:

- أذكر أننا كنا أحيانًا نذهب معًا إلى المطعم، بسانت لو لا فوري.

- هل أنت متأكد؟

- يدعى المطعم شالي ليرميتاج.

كان هذا الاسم قد أثار انتباهه في طفولته حيث إن ذلك الزقاق هو الآخر يحمل الاسم ذاته.

هزت منكبيها.

- أنا مندهشة؛ فأنا لم أكن لآخذ طفلاً إلى مطعم.

قالت ذلك بنبرة جافة وقعت وقع المفاجأة على دراغان.

- هل أقمتِ طويلاً بمنزل سانت لو لا فوري؟

- لا، لقد باعه روجي فانسون.. كما تعلم، هذا المنزل كان لروجي فانسون.

كان دائمًا يظن أن المنزل كان في ملكية آني آستروند. كان هذا الاسم واللقب يبدوان له كما لو أنهما على علاقة، الواحد منهما بالآخر: آني آستروند.

- لقد بقيتُ حوالي السنة هناك، أليس كذلك؟

كان قد طرح السؤال على مضض، كما لو كان يخشى أن يبقى معلقًا دون جواب.

- نعم.. سنة. لم أعد أذكر. أرادت أمك أن تستنشق هواء الريف. كان لدي إحساس أنها كانت تحاول التخلص منك.

- كيف تعرفت إليها؟

- أوه.. عن طريق أصدقاء. كنت ألتقي بالكثير من الأشخاص آنذاك.

فطن دراغان أنها لن تخبره المزيد عن هذه المرحلة من سانت لو لا فوري. عليه أن يكتفي بذكرياته هو، ذكريات نادرة وشاحبة لم يعد متأكدًا من دقتها، ما دامت أنها أخبرته أنها لم تكن أبدًا لتصطحب طفلاً إلى مطعم.

- المعذرة، صغيري جون؛ فأنا بالكاد أفكر في الماضي.

ترددت قليلاً، ثم قالت:

- في تلك الفترة، كنت أمر بلحظات عصيبة. لا أعلم إذا ما زلت تذكر كوليت؟

أحيا هذا الاسم لديه ذكرى غامضة جدًّا، ذكرى لا يمكن الإمساك بها مثل انعكاس يمرق على جدار.

- كوليت.. كوليت لوران.. كانت هناك صورة لها في غرفتي، بسانت لو لا فوري. اشتغلت نموذجًا لبعض الرسامين.. لقد كانت صديقة مرحلة المراهقة.

كان يذكر جيدًا اللوحة بين النافذتين. فتاة تضع مرفقها على الطاولة وذقنها في راحة يدها.

- تعرضت للاغتيال في فندق بباريس.. لم نعلم أبدًا من قام بذلك. كانت تتردد غالبًا على سانت لو لا فوري.

حينما كانت آني تعود من باريس حوالي الثانية صباحًا، كان يسمع خلال مناسبات عديدة، في الردهة، أصوات الضحك. هذا يعني أنها لم تكن بمفردها. بعد ذلك، يغلق باب الغرفة وتصله همسات من خلال العوازل. ذات صباح، كانا قد رافقا هذه الفتاة التي تدعى كوليت لوران إلى باريس في سيارة آني. كانت تجلس في المقعد الأمامي، إلى جانب آني، بينما كان هو يجلس في المقعد الخلفي. قاما بجولة برفقتها في حديقة شون زيليزي، هناك حيث يوجد سوق الطوابع. كانوا قد توقفوا عند واحد من الأكشاك، وكانت كوليت لوران قد أهدته جيبًا للطوابع، سلسلة من الألوان المختلفة لصورة ملك مصر. منذ ذلك اليوم، أخذ يجمع الطوابع البريدية، حيث كان يرتبها في نفس الوقت وراء أشرطة من الورق الشفاف. ربما كان يوجد في الحقيبة من الورق المقوى التي تقشر عنها الدهان. لم يفتح هذه الحقيبة منذ عشر سنوات. لم يستطع التخلص منها، لكنه مع ذلك كان

مرتاحًا أنه فقد المفتاح.

في يوم آخر، كانا قد ذهبا، برفقة كوليت لوران، إلى قرية في الجانب الآخر من غابة مونمورونسي. كانت آني قد أوقفت سيارتها أمام أحد القصور الصغيرة، وكانت قد شرحت له أنها المدرسة الداخلية حيث كانا قد تعارفا، هي وكوليت لوران. قاما بزيارة الداخلية برفقته، تقودهم المديرة. كانت قاعات الدرس وأماكن النوم فارغة.

- إذن، فأنت لا تذكر كوليت؟

رد دراغان:

- بالطبع، أعرفها. لقد تعارفتما في الداخلية.

نظرت إليه باندهاش.

- كيف تعرف ذلك؟

- ذات زوال اصطحبتماني لزيارة داخليتكما القديمة.

- هل أنت متأكد؟ فأنا لا أذكر أي شيء.

- لقد كانت في الجانب الآخر من غابة مونمورونسي.

- لم آخذك أبدًا هناك مع كوليت.

لم يرد أن يجادلها. لعله قد يجد تفسيرات في المؤلف الذي كان الطبيب قد أهداه له، ذلك الكتاب

الصغير ذو الغلاف الأبيض حول النسيان.

كانا يسيران على طول الممشى، على حافة حدائق رانيلاغ. بسبب الليل، والأشجار، وحضور آني التي أمسكت بذراعه، ساور دراغان الإحساس بأنه يتجول معها، كما كان يفعل في الماضي، بغابة مونمورونسي. أوقفت السيارة عند ملتقى بالغابة، وسارا حتى مستنقع فوسمبرون. يذكر الأسماء: ملتقى سنديان الذباب. ملتقى الرأس. وكان أحد هذه الأسماء يسبب له الذعر: صليب الأمير كوندي[11]. في المدرسة حيث قامت آني بتسجيله وحيث كانت تأتي لاصطحابه الساعة الرابعة والنصف زوالاً، تحدثت المعلمة عن هذا الأمير الذي عثروا عليه مشنوقًا في غرفته بقصر سانت لو، دون أن تتضح أبدًا الظروف المحددة لموته. دعته "آخر آل كوندي".

- فيم تفكر، صغيري جون؟

أسندت رأسها إلى كتفه، وكانت تنتاب دراغان الرغبة لكي يخبرها أنه يفكر في "آخر آل كوندي"، في المدرسة، وأيضًا في النزهات عبر الغابة. لكنه كان يخشى أن تجيبه: "لا، أنت مخطئ.. ليست لدي أي ذكريات". هو الآخر، خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة، انتهى به المطاف إلى نسيان كل شيء.

- عليك أن تدعوني إلى زيارة غرفتك. سأحب كثيرًا التواجد برفقتك في حي ساحة بلانش.

ربما تذكر أنهما قضيا بعض الأيام في هذا الحي قبل انطلاقهما على متن القطار نحو ضاحية ميدي. لكن، بهذا الشأن أيضًا، لم يجرؤ أن يطرح عليها السؤال.

أجاب دراغان:

- ستجدين أن هذه الغرفة صغيرة جدًّا، كما أنها تفتقر إلى التدفئة.

- لا أهمية لذلك.. لا يمكنك أن تتصور كيف كنا نموت قشعريرة خلال فصل الشتاء، حينما كنا صغارًا جدًّا، في هذا الحي، مع أخي بيير.

غير أن هذه الذكرى، على الأقل، لم تبعث لديها أي شجون، ذلك أنها انفجرت ضحكًا.

كانا قد وصلا نهاية الممشى، على مقربة من باب لا موبيت. تساءل إذا لم تكن رائحة الخريف هذه، ورائحة الأوراق والأرض البليلة، لا تنبعث من غابة بولون، أو حتى عبر الزمن من غابة مونمورونسي.

عادا على أعقابهما حتى يلتحقا بما كانت تسميه، بمسحة من السخرية، "بيتها". وهما يسيران معًا، كان يشعر أن فقدانًا لطيفًا للذاكرة يتملكه. انتهى به المطاف ليتساءل منذ متى وهو برفقة هذه السيدة المجهولة الهوية؟ ربما كان قد التقى بها للتو، في ممشى الحديقة أو أمام المباني ذات الواجهات المعتمة. وإذا ما لمح عن طريق الصدفة ضوءًا ما، فسينبعث ذلك دومًا من نافذة في الطابق الأخير، كما لو أن شخصًا ما كان قد غادر منذ مدة ونسي أن يطفئ المصباح وراءه.

ضغطت على ذراعه، كما لو أنها تريد أن تطمئن إلى وجوده.

- كنت دائمًا أشعر بالخوف حينما أعود إلى البيت مشيًا في تلك الساعة. لم أعد أعلم بالضبط أين أوجد.

وبالفعل فقد كان المرء يقطع مكانًا مجهولاً، أو بالأحرى منطقة محايدة حيث يكون معزولاً عن العالم.

- تصور أنك كنت بحاجة لشراء علبة من السجائر أو أن تجد صيدلية مفتوحة في الليل. الأمر صعب جدًّا هنا.

من جديد، انفجرت ضحكًا. كان ضحكها وصوت أقدامهما يرسل رنينًا عبر هذه الأزقة التي يحمل أحدها اسم كاتب مطمور.

أخرجت من جيب معطفها رزمة من المفاتيح، وجربت العديد منها في فتحة باب الدخول قبل أن تجد المفتاح المناسب.

- جون.. سترافقني حتى الأعلى؟ أخاف من الأشباح.

كانا في المدخل ذي الأرضية السوداء والبيضاء. فتحت بابًا مزدوجًا.

- أتريد أن أريك الطابق الأرضي؟

سلسلة من الغرف الفارغة. جدران من الخشب الشفاف وكوى كبيرة يغلفها الزجاج. كان ضوء أبيض يتساقط من مصابيح معلقة بالجدران، تحديدًا أسفل السقف.

- لا بد أن هذا هو الصالون، قاعة الأكل والخزانة. في فترة ما، كان روجي فانسون يخزن بعض البضائع.

أغلقت الباب، أمسكت بذراعه وقادته نحو السلالم.

- هل تريد أن ترى الطابق الثاني؟

فتحت من جديد بابًا وانطلق الضوء الذي كان ينبعث من نفس المصابيح على مستوى السقف. حجرة فارغة كما تلك الموجودة في الطابق الأرضي. دفعت أحد عوارض الكوة التي انكسر زجاجها. سطح كبير يشرف على أشجار الحديقة.

- كانت قاعة الرياضة للمالك السابق.. الشخص الذي كان يسكن هنا قبل الحرب.

لاحظ دراغان وجود ثقوب في الأرضية، أرضية تبدو له كأنها تتوفر على اتساق الفلين. على الجدار علق أثاث من الخشب مع ثقوب تدعم بعض الثقالات.

- يوجد الكثير من الأشباح هنا.. لا آتي هنا أبدًا وحدي.

في الطابق الأول، أمام الباب، وضعت يدًا على كتفه.

- جون، هل يمكنك أن تبقى معي هذه الليلة؟

قادته نحو الغرفة التي تستعمل كصالة. لم تشعل الضوء. على الكنبة، انحنت وهمست في أذنه:

- حينما سيكون علي مغادرة هذا المكان، هل ستستقبلني في غرفتك بساحة بلانش؟

داعبت جبينه. ودائمًا بصوت خفيض همست:

- تصرف كما لو أننا لم نكن نعرف بعضنا من قبل. الأمر بسيط.

أجل، لقد كان الأمر بسيطًا، ما دامت أنها أخبرته أنها غيرت اسمها العائلي، وحتى اسمها الشخصي.

حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً، رن الهاتف في مكتبه، لكنه لم يرفع السماعة، في انتظار أن يترك المتصل رسالة على المجيب الآلي. نفسٌ منتظم للوهلة الأولى، متقطع شيئًا فشيئًا، ثم صوت ناء كان يتساءل إذا ما كان صوت امرأة أو رجل. وشوشة. بعد ذلك النفس من جديد، ثم صوتان يختلطان الواحد بالآخر ويتهامسان دون أن يتمكن من التقاط الكلمات. أخيرًا، انتهى به الأمر إلى إطفاء المجيب الآلي وفك خيط الهاتف. من كان المتصل؟ شنتال غريباي؟ جيل أوتوليني؟ الاثنان معًا؟

قرر أخيرًا أن ينتهز فرصة سكون الليل ليعيد قراءة كل أوراق "الملف" للمرة الأخيرة. لكن بالكاد شرع في القراءة حينما انتابه شعور بالامتعاض: كانت الجمل تتداخل، وكانت جمل تظهر فجأة لتغطي على الجمل السابقة، وتتوارى دون أن تترك له الوقت لتفكيكها. كان في حضور طرس، حيث كل الكتابات المتعاقبة تتداخل فوق بعضها بعضًا، وتتحرك كجراثيم ينظر إليها بواسطة مجهر. أوعز هذا إلى التعب وبالتالي أغمض جفنيه.

حينما فتحه من جديد، وقع نظره على نسخة مصورة من المقطع المقتطف من سواد الصيف حيث يبرز اسم غاي تورستيل. خارج فصل كشك الصور الأوتوماتيكية (فصل كان قد سرقه من الحياة الفعلية)، لم تكن له أدنى ذكرى عن كتابه الأول. الذكرى الوحيدة التي يحتفظ بها تتعلق بالعشرين صفحة الأولى التي حذفها لاحقًا. لقد كانت، في ذهنه، بداية الكتاب قبل أن يتخلى عنه. كان يتوقع عنوانًا لهذا الفصل الأول: "العودة إلى سانت لو لا فوري".

هل لا تزال هذه الصفحات العشرين ترقد إلى الأبد في علبة من الورق المقوى أو حقيبة بالية؟ أو هل كان قد مزقها؟ لم يعد يذكر أي شيء.

كان يرغب، قبل أن يكتبها أن يقوم للمرة الأخيرة، بعد مرور خمس عشرة سنة، بزيارة سانت لو لا فوري. لا يتعلق الأمر بحج، ولكن بالأحرى بزيارة ستسعفه في كتابة مقدمة الكتاب. وعن هذه "العودة إلى سانت لو لا فوري"، لم يتحدث إلى آني آستروند بعد شهور قليلة لاحقًا، في المساء الذي التقى بها من جديد بعد ظهور كتابه. كان يخشى أن تخبره وهي تهز كتفيها: "يا لها من فكرة غريبة، صغيري جون، العودة إلى هناك..".

ذات زوال، بعد انصرام أيام على لقائه بتورستيل في مضمار السباق، كان قد استقل حافلة بباب آسنيير. كانت الضاحية قد تغيرت حينها. هل كان الطريق ذاته الذي كانت آني آستروند تسلكه حينما تعود في السيارة من باريس؟ مرت الحافلة أسفل الطريق السككية بمحاذاة محطة إيرمونت.

ومع ذلك، فإنه يتساءل الآن إذا لم يكن قد رأى هذا الطريق الذي يبلغ عمره أكثر من أربعين سنة في حلم. لا شك أن الذي يثير كل هذا الارتباك لديه هو أنه خصص له فصلاً من فصول الرواية. كان قد صعد الشارع الكبير لسانت لو وقطع ساحة النافورة. ثمة ضباب أصفر يطفو، تساءل إذا لم يكن مصدره الغابة. شارع ليرميتاج، كان على يقين بأن أغلب المنازل لم تكن قائمة خلال فترة آني آستروند، وأنه في مكانها كانت هناك أشجار، على كل جانب، تشكل أوراقها قبة. هل كان فعلاً بسانت لو؟ ظن أنه تعرف على جزء من المنزل الذي يطل على الشارع، والشرفة الكبيرة التي كانت آني غالبًا ما تركن سيارتها أسفلها. لكن، على مسافة أبعد، اختفى الجدار الذي يشكل السور ومكانه انبثق مبنى عال من الإسمنت.

على الواجهة التي يحميها سياج، ثمة منزل من طابق ذي نافذة طويلة يعترش على واجهته لبلاب. ثمة عارضة نحاسية على السياج: "الدكتور لويس فوسترات". يذكر كيف أنها ذات صباح بعد نهاية الدراسة اصطحبته لزيارة هذا الدكتور، وأنه ذات مساء قام هذا الأخير بعيادته في غرفته في البيت لأنه كان مريضًا.

تردد قليلاً، هناك، وسط الشارع، وبعد ذلك حزم أمره. دفع الحاجز الذي ينفتح على حديقة صغيرة وصعد سلالم المدخل. رن الجرس وانتظر. في انفراجة الباب، لمح رجلاً ذا قامة طويلة، الشعر الأبيض القصير، العين زرقاء. لم يتعرف عليه.

- الدكتور فوسترات؟

ندت عن الأخير حركة مباغتة، كما لو أن دراغان انتشله للتو من نومه.

- لا توجد زيارات اليوم.

- أردت فقط أن أتحدث إليك.

- بشأن ماذا سيدي؟

خلا السؤال من أي ارتياب. كما أن النبرة ترقرقت جميلة وجرس الصوت يتخلله شيء من الطمأنينة.

- أكتب كتابًا حول سانت لو لا فوري.. أريد أن أطرح عليك بعض الأسئلة.

جزع دراغان كثيرًا بحيث بدا له أنه نطق هذه الجملة وهو يتمتم. تطلع إليه الرجل بابتسامة.

- تفضل، سيدي.

قاده عبر صالة حيث أضرمت نار في مدفئة، وأشار إليه إلى كرسي أمام النافذة الطويلة. جلس إلى جانبه في كرسي مشابه للكرسي الأول، يغطيه نفس الثوب الإسكتلندي.

- ومن أوحى لك بزيارتي أنا على وجه الخصوص؟

كان صوته من الصرامة والنعومة بحيث يمكنه أن يحصل، في وقت وجيز، على اعترافات أعتى المجرمين وأكثرهم مكرًا. هذا على الأقل ما تخيله دراغان.

- وأنا أمر بالجوار، لمحت العلامة على بابك. فقلت لنفسي إن طبيبًا يعرف جيدًا المكان الذي يشتغل

فيه.

كان قد ضغط على نفسه حتى يتكلم بطريقة واضحة، بالرغم من تضايقه، وكان عن حق قد استعمل كلمة ‘‘المكان’’ بدل كلمة ‘‘قرية’’، التي خطرت بباله على نحو طبيعي. غير أن سانت لو لا فوري لم تعد قرية طفولته.

- أنت لم تخطئ القصد. أنا أمارس الطب منذ خمس وعشرين سنة.

انتصب واقفًا وتوجه نحو رف حيث لمح دراغان خزانة للمشروبات.

- هل تريد أن تشرب شيئًا ما؟ قليلاً من شراب البورتو؟

مد الكأس لدراغان وعاد إلى مكانه، بجانبه، على الكرسي من الثوب الإسكتلندي.

- وتكتب كتابًا حول سان لو، أليس كذلك؟ فكرة جيدة.

- أوه.. كراسة.. حول مناطق مختلفة من ليل دو فرنس.

بحث عن تفاصيل أخرى ستجعل هذا الطبيب المدعو فوسترات يشعر بالثقة.

- مثلاً سأفرد فصلاً كاملاً للموت الملغز للأمير الأخير لكوندي.

- يبدو لي أنك على معرفة عميقة بتاريخ مدينتنا الصغيرة.

ثم تفرس فيه الدكتور فوسترات بعينيه الزرقاوين وابتسم له، كما فعل ذلك منذ خمس عشرة سنة قبل ذلك حينما فحصه في غرفته في المنزل المقابل. هل كان يعاني من نزلة برد أو واحد من أمراض الطفولة ذي الأسماء المعقدة؟

قال دراغان:

- سأكون بحاجة إلى معلومات أخرى لن تكون ذات طبيعة تاريخية.

ثم أضاف:

- حكايات، مثلاً، تهم بعض سكان المدينة.

تفاجأ من نفسه لأنه تمكن من التلفظ حتى النهاية، وبكل طمأنينة بجملة بهذا الطول.

بدا الدكتور فوسترات شاردًا، عيناه مركزتان على قطعة خشب تلتهمها نيران المدفئة ببطء.

وهو يهز رأسه، كما لو لينعش ذاكرته قال:

- كان لدينا فنانون بسانت لو. عازفة البيانو واندا لاندوفسكا، وكذلك الشاعر أوليفيي لاروند.

- هل تسمح بأن أدون الأسماء؟

أخرج من أحد جيوب سترته قلمًا ومذكرة من الجلد الأسود التي يحتفظ بها دومًا منذ أن شرع في كتابه. كان يدون فيها نهايات جمل، أو العناوين المحتملة لروايته. كتب بالكثير من المثابرة، بحروف كبيرة، واندا لاندوفسكا. أوليفيي لاروند. أراد أن يظهر للدكتور فوسترات أنه يتحلى بالجد والمثابرة.

- شكرًا على هذه المعلومات.

- أسماء أخرى ستعود بكل تأكيد إلى ذهني.

- هذا لطف كبير من جانبك. هل تذكر، من باب الصدفة، حدثًا ما وقع بسانت لو لا فوري؟

- حدث مثل ماذا؟

ظاهريًّا، كان الدكتور فوسترات قد تفاجأ من هذه الكلمة.

- لا يتعلق الأمر بجريمة، طبعًا.. لكن شيئًا مريبًا يكون قد وقع هنا، فقد علمت بأمر منزل، تحديدًا قبالة عيادتك، حيث كان يقيم بعض الأشخاص غريبـي الأطوار.

هكذا فقد دخل في صلب الموضوع، بطريقة أسرع مما كان يتوقع.

تفرس فيه الدكتور فوسترات من جديد بنظرته الزرقاء حيث شعر دراغان بريبة ما تخترقه.

- أي منزل؟

تساءل بداخله إذا لم يكن قد بالغ في حماسه. لكن لماذا، على أي حال؟ ألا يوحي شكله بمظهر شاب عاقل يريد أن يكتب كراسة عن سانت لو لا فوري؟

- المنزل الذي يقع قليلاً إلى اليمين.. ذو السقيفة الكبيرة.

- هل تقصد لا مالادروري[12]؟

كان دراغان قد نسي هذا الاسم، الشيء الذي سبب له وخزًا في صدره. انتابه إحساس عابر بأنه يعبر أسفل سقيفة المنزل.

- أجل، بالطبع.. لا مالادروري.

وهو ينطق حروف هذه الكلمة شعر بغتة بضيق ما، أو بالأحرى بالخوف، كما لو أن لا مالادروري كانت مرتبطة لديه بحلم مرعب.

- من أخبرك عن لا مالادروري؟

باغته هذا السؤال. كان من الأفضل إخبار الدكتور فوسترات بالحقيقة. الآن، فات الأوان. كان عليه أن يقوم بذلك قبل قليل، على درج المدخل. "لقد عالجتني، منذ زمن بعيد، خلال طفولتي". لكن لا، سينتابه إحساس أنه يتقمص شخصية إنسان آخر، وأنه ينتحل هوية إنسان آخر. هذا الطفل يبدو له اليوم شخصًا غريبًا.

- صاحب مطعم ليرميتاج هو الذي أخبرني..

قال ذلك جزافًا، حتى يخدعه. هل لا تزال هذه المؤسسة قائمة، وهل قامت فعلاً خارج ذكرياته؟

- آه نعم.. مطعم ليرميتاج. كنت أظن أنه لم يعد يحمل هذا الاسم الآن. هل تعرف سانت لو منذ زمان؟

شعر دراغان بصعود دوار، ذلك الدوار الذي ينتابك حينما تكون على وشك الاعتراف بشيء سيغير مجرى حياتك. هنا، على قمة المنحدر، يكفي أن تنساب، كما لو على زلاقة. وسط الحديقة الكبيرة للا مالادروري، كانت توجد فعلاً زلاقة وضعها المالكون السابقون والتي كان منحدرها صدئًا.

- لا، هذه أول مرة أتردد فيها على سانت لو لا فوري.

في الخارج، كان الليل قد أرخى سدوله، فنهض الدكتور فوسترات ليشعل مصباحًا ويؤجج النار.

- أوان الشتاء. هل شاهدت ذلك الضباب منذ قليل؟ كنت على حق لإضرام النار.

جلس في الكرسي ومال بجذعه نحو دراغان.

- كنتَ محظوظًا لأنك طرقت بابـي اليوم.. إنه يوم إجازتي. يجب القول إنني قلصت زياراتي للمنازل.

هل كانت هذه الكلمة "زيارات" طريقة مواربة من جانبه لكي يومئ بأنه تعرف عليه؟ لكن عدد الزيارات المنزلية منذ خمس عشرة سنة كان كبيرًا، وكان الدكتور لويس فوسترات يفحص الكثير من المرضى في الغرفة الصغيرة التي يستعملها عيادة، في الطرف القصي من الممر، بحيث يستحيل أن يتعرف على كل الوجوه. وكيف له، فكر دراغان، أن يربط الصلة بين ذلك الطفل وهو اليوم؟

- في الواقع، كان هناك أشخاص غريبو الأطوار يقيمون في لا مالادروري. لكن هل تظن فعلاً أنه سيكون مهمًّا أن أحدثك عن الموضوع؟

شعر دراغان أن هذه الكلمات العادية تخفي وراءها كلمات أخرى. هكذا، على المذياع، حينما يصير الإرسال مشوشًا ويتداخل صوتان. بدا له أنه سمع: "لماذا عدت بعد مرور خمس عشرة سنة إلى سانت لو؟".

- يمكن القول إن هذا المنزل حل به مصير سيئ.. ربما بسبب اسمه.

- اسمه؟

ابتسم له الدكتور فوسترات.

- هل تعلم ما تعنيه كلمة "مالادروري"؟

- بالطبع.

كان يجهل ذلك، لكنه شعر بخجلٍ الاعتراف بذلك أمام الدكتور فوسترات.

- قبل اندلاع الحرب، كان يقيم في المنزل طبيب مثلي غادر سانت لو. بعد ذلك، حينما جئت إلى هنا، كان يتردد على المنزل على نحو منتظم شخص ما يدعى لوسيان فورر، صاحب مؤسسة ليلية في باريس. كانت الحركة لا تنقطع في هذا المنزل. منذ ذلك الحين أخذ أشخاص غريبو الأطوار يترددون عليه حتى أواخر الخمسينيات.

كان دراغان خلال هذه الأثناء يدون كلام الدكتور في مذكرته. بدا الأمر كما لو أنه سيكشف له عن سر أصوله، كل هذه السنوات من بداية الحياة التي نسيها المرء، باستثناء تفصيل ينبعث أحيانًا من الأعماق، شارع تغطيه قبة من الأوراق، عطر، اسم مألوف، لكنك لم تعد تعرف من صاحبه، زلاقة.

- بعد ذلك، اختفى هذا المدعو لوسيان فورر بين يوم وآخر، وتم شراء المنزل من طرف سيد يدعى فانسون.. روجي فانسون إذا لم تخنّي الذاكرة. كان يوقف دومًا سيارته الأمريكية التي يسحب سقفها في الشارع.

بعد خمس عشرة سنة، لم يعد دراغان يذكر على وجه الدقة لون هذه السيارة. بني فاتح؟ أجل، بكل تأكيد. إضافة إلى مقاعد من الجلد الأحمر. يذكر الدكتور فوسترات أنها كانت سيارة يمكن سحب غطائها، وإذا لم تخنه الذاكرة، سيكون بوسعه أن يؤكد له لونها: بني فاتح. لكنه كان يخشى إذا ما طرح عليه السؤال أن يثير ريبته.

- لا يسعني أن أخبرك بكل دقة عن عمل هذا السيد روجي فانسون، ربما يقوم بالعمل ذاته كما لوسيان فورر. رجل في الأربعينات من عمره يزور باريس بانتظام.

بدا لدراغان في ذلك الزمن أن روجي فانسون لا يقضي أبدًا الليل في المنزل. كان يقضي النهار في سانت لو لا فوري ويغادر بعد العشاء. من سريره، كان يسمع محرك سيارته وهو ينطلق، وكان هذا الصوت يختلف عن الصوت الذي تصدره سيارة آني. صوت هو بالمرة أكثر قوة وضوضاء.

- كان يقال إنه نصف أمريكي أو إنه أقام لمدة طويلة في أمريكا. كان له مظهر شخص أمريكي.. ضخم.. هيئة رياضية. عالجته مرة. أظن أنه كان قد لُوي معصمه.

لا يذكر دراغان أي شيء عن هذا الحدث. سيكون متأثرًا لو رأى روجي فانسون يحمل ضمادة أو جبسًا.

- كانت هناك أيضًا فتاة شابة وطفل يسكنان هناك. لم تكن في السن الذي يجعلها تكون أمه. كنت أحسب أنها أخته الكبرى. يمكنها أن تكون ابنة هذا السيد روجي فانسون..

ابنة السيد روجي فانسون؟ لا، لم تخطر على باله هذه الفكرة. حول العلاقات التي تربط تحديدًا بين روجي فانسون وآني، لم يطرح أبدًا أي أسئلة. يجب الاعتقاد، كما كان يقول غالبًا، إن الأطفال لا يطرحون على أنفسهم أية أسئلة. لكن بعد مرور سنوات، نحاول فك الألغاز التي لم تكن حينها كذلك، ويحاول الواحد تفكيك الحروف الممحية جزئيًّا للغة عتيقة جدًّا، الحروف التي لا يعرف المرء حتى أبجديتها.

- كانت الحركة لا تنقطع في هذا المنزل.. أحيانًا يأتي أشخاص في منتصف الليل.

كان دراغان، في تلك الفترة، ينعم بنوم هانئ، نوم الطفولة، ما عدا خلال الأمسيات التي يرقب فيها عودة آني. غالبًا، يسمع خلال آناء الليل اصطفاق الأبواب وضوضاء، لكنه كان يخلد حالاً إلى النوم. كما أن المنزل كان واسعًا، يتألف من العديد من البنايات الإضافية بحيث لن يستطيع معرفة من يكون هناك. في الصباح، حينما ينطلق إلى المدرسة، يلاحظ بعض السيارات أمام السقيفة. في المباني الإضافية حيث توجد غرفته، توجد غرفة آني، في الجانب الآخر من الرواق.

سأل الدكتور فوسترات:

- وفي نظرك، من يكون هؤلاء الأشخاص؟

- كان هناك تفتيش للمنزل، لكنهم كانوا قد اختفوا جميعًا. تم استجواب-ي، كوني جارهم الأقرب. يبدو أن هذا المدعو روجي فانسون كان متورطًا في قضية كانوا يسمونها "الكومبيناتي"[13]. هذا الاسم، لا بد أنني قرأته في مكان ما، لكن لا يمكنني أن أخبرك بماذا يتعلق الأمر. أعترف لك أنني لم أهتم قط بالأحداث العامة.

هل يشرئب دراغان فعلاً نحو معرفة تتجاوز معرفة الدكتور فوسترات؟ شعاع ضوء بالكاد يمكن تمييزه تحت باب مغلق، والذي يشير إلى وجود شخص ما. لكن لم يكن يحدوه الفضول لفتح الباب ومعرفة من كان بالغرفة، أو بالأحرى في الخزانة. خطرت بباله للتو عبارة: "الجثة في الخزانة". لا، لا يريد أن يعرف ما تداريه كلمة "لا كومبيناتي". منذ الطفولة، كان يرى نفس الحلم المرعب: أولا شعور عام بالراحة عند الاستيقاظ، كما لو أنه أفلت من خطر ما. ثم بعد ذلك، يصبح الحلم واضحًا شيئًا فشيئًا. لقد كان شريكًا أو شاهدًا على شيء فظيع حدث في فترة بعيدة في الماضي. تم القبض على بعض الأشخاص. هو لم يتم التعرف عليه أبدًا. كان يتوجس من أن يتم استجوابه إذا ما تم إدراك أنه كانت له علاقات "بالمتهمين". وسيكون من المحال الجواب على الأسئلة.

سألَ الطبيب فوسترات:

- ماذا عن البنت الشابة والطفل؟

كان قد تفاجأ حينما قال الدكتور: "كنت أظن أنها أخته الكبرى". لعل أفقًا سينفتح في حياته ويبدد مناطق العتمة: والدان مزيفان بالكاد يذكرهما، واللذان يبدوان أنهما يرغبان في التخلص منه. وهذا المنزل بسانت لو لا فوري. كان يتساءل أحيانًا ماذا كان يفعل هناك. منذ الغد، سيشرع في البحث. لكن أولاً، عليه أن يجد عقد ازدياد آني آسترونذ. كما سيطلب عقد ازدياد خاص به هو، دراغان، لكنه لن يكتفي بنسخة مرقونة بالآلة ولكنه سيطلع على السجل ذاته، حيث كل الأشياء مكتوبة بخط اليد. ضمن السطور القليلة المفردة لولادته، سيكتشف تشطيبات، أسماء فوق أسماء، أسماء أريد محوها.

- كانت غالبًا بمفردها مع الطفل، في لا مالادروري... لقد طرحوا علي أسئلة بشأنها هي الأخرى، بعد التفتيش. حسب الأشخاص الذين استجوبوني، فقد كانت "راقصة بهلوانية".

كان قد نطق الكلمتين الأخيرتين على طرف لسانه.

- هذه هي المرة الأولى التي أتحدث فيها عن هذه القصة منذ زمن طويل. باستثنائي أنا، لم يكن أي شخص آخر فعلاً بسانت لو على علم بذلك، فقد كنت جارهم الأقرب، لكنك ستفهم أنهم لم يكونوا أشخاصًا يمتون إلى عالمي بصلة.

ابتسم لدارغان ابتسامة ساخرة إلى حد ما، وابتسم دراغان هو الآخر لفكرة أن هذا الرجل ذا الشعر الأبيض المقصوص بشكل قصير، بهيأته العسكرية، وخصوصًا النظرة الزرقاء الأكثر صراحة، كان، كما يقول، جارهم الأقرب.

- لا أظن أنك ستستعمل كل هذا في كراستك عن سانت لو.. أو عليك أن تبحث عن تفاصيل أكثر دقة في أرشيف رجال الأمن. لكن، صراحة، هل تظن أن هذا يستحق العناء؟

باغت هذا السؤال دراغان. هل تعرف إليه الدكتور فوسترات واكتشف أمره تمامًا؟ "صراحة، هل تظن أن هذا يستحق العناء؟". قالها بلطف، بنبرة تأنيب أبوي ولمَ لا نصيحة عائلية، نصيحة

من عرفك خلال مراحل طفولتك.

‘‘بالطبع، لا’’. قال دراغان ثم واصل: ‘‘سيكون ذلك غير مناسب في كراسة عادية حول سانت لو لا فوري. عند الاقتضاء، يمكن أن نصنع منها رواية’’.

كان قد وضع قدمه في منحدر زلق هو على استعداد تام لهبوطه: الاعتراف للطبيب فوسترات بالأسباب الفعلية التي دفعته ليقرع جرس بابه. بوسعه أن يخبره أيضًا: ‘‘دكتور، لننتقل إلى غرفة الفحص، كما كنا نفعل في السابق.. ألا تزال توجد دومًا في آخر الممر؟’’.

- رواية؟ يجب معرفة كل الشخصيات. العديد من الأشخاص ترددوا على هذا المنزل. أولئك الذين استجوبوني كانوا يطلعون على قائمة وكانوا يسردون لي كل اسم، لكنني لم أعرف أي واحد من هؤلاء الأشخاص.

لشد ما أراد دراغان أن يحظى بهذه القائمة. كانت ستساعده دون شك في العثور على أثر آني، لكن كل هؤلاء الأشخاص كانوا قد تبخروا في الأجواء، بتغيير الاسم العائلي، الاسم الشخصي والوجه. آني هي الأخرى لا بد أنها غيرت اسمها، إذا ما زالت على قيد الحياة.

‘‘وماذا عن الطفل؟’’. سأل دراغان ثم واصل: ‘‘هل لديك أخبار عن الطفل؟’’.

- لا شيء. كنت غالبًا ما أتساءل عما حل به. يا لها من بداية غريبة في الحياة!

- لا بد أنهم كانوا قد سجلوه في مدرسة ما.

- نعم. بمدرسة لا فوري، شارع بوفرون. أذكر أنني كتبت رسالة لتبرير غيابه عن المدرسة بسبب نزلة

برد.

- وفي مدرسة لا فوري قد نجد أثرًا لمروره من هناك.

- لا، للأسف. فقد هدموا مدرسة لا فوري منذ سنتين. كانت مدرسة صغيرة تمامًا، كما تعلم.

يذكر دراغان ساحة الاستراحة، أرضيتها المكسوة برماد الفحم الحجري، وأشجار الصبار، والتناقض، خلال ظهيرات الشمس، بين خضرة الأوراق وسواد الرماد. ومن أجل هذا لم يكن بحاجة لكي يغمض عينيه.

- لم تعد المدرسة موجودة، لكن بوسعي السماح لك بزيارة المنزل.

من جديد، انتابه إحساس أن الطبيب فوسترات اكتشف حقيقته. لكن لا، كان ذلك من المحال. لا يوجد أي شبه بينه وبين ذلك الطفل الذي تركه مع الآخرين، مع آني، وروجي فانسون والأفراد الذين يأتون في الليل، على متن السيارة، والذين ظهرت أسماؤهم في السابق على قائمة، قائمة مسافرين على متن باخرة غارقة.

- أحتفظ بالمفتاح الثاني للمنزل، في حالة إذا ما رغب أحد زبائني بزيارتها. إنه معروض للبيع، لكن لا يوجد الكثير من الزبائن. هل آخذك إلى هناك؟

- في مناسبة أخرى.

بدا الدكتور فوسترات محبطًا. أساسًا، فكر دراغان، فقد كان سعيدًا لاستقبالي والثرثرة. عادة، لا بد أنه يكون وحيدًا، خلال هذه الظهيرات من الإجازة التي لا تنتهي.

- حقًّا؟ ألا يعني لك ذلك أي شيء؟ إنه أحد المنازل العتيقة بسانت لو. كما يشير اسمه، فقد تم تشييده مكان مستشفى الجذام. قد يكون هذا مهمًّا لكراستك.

قال دراغان:

- في يوم آخر. أعدك أن آتي.

لم تكن لديه الشجاعة ليدخل إلى المنزل. كان يفضل أن يبقى بالنسبة له أحد تلك الأماكن التي كانت مألوفة لديك، والتي يحدث لك أحيانًا أن تقوم بزيارتها في الحلم: ظاهريًّا تكون هذه الأماكن هي ذاتها، ومع ذلك فهي تحتقن بشيء وقح. خباء أو ضوء قوي جدًّا، ثم تتقاطع خلال هذه الأحلام بأشخاص كنت تحبهم، والذين تعرف أنهم قضوا نحبهم. إذا ما وجهت لهم الكلام فإنهم لا يسمعون صوتك.

- ألا يزال الأثاث كما كان منذ خمس عشرة سنة؟

- لم يعد هناك أي أثاث. كل الغرف فارغة. والحديقة غابة حقيقية عذراء.

غرفة آني، على الجانب الآخر من الممر، حيث كان يتناهى إليه في وقت متأخر جدًّا ما بين النوم والصحو أصوات وضحك. كانت برفقة كوليت لوران. لكن، غالبًا ما كان الصوت والضحك لرجل لم يسبق له أبدًا أن التقى به خلال اليوم في المنزل. على هذا الرجل أن يغادر في وقت باكر جدًّا في الصباح، قبل أوان المدرسة. شخص مجهول سيبقى كذلك حتى نهاية الزمن. يستحضر ذكرى أخرى، أكثر دقة، دون أن يقوم بأي جهد، على طريقة أشعار الأغنيات التي يحفظها المرء خلال سنين الطفولة، والتي يمكنك أن تستظهرها كل حياتك دون أن تدرك معناها. كانت نافذتا غرفته تطل على الشارع الذي لم يكن كما اليوم شارعًا تظلله الأشجار. على الجدار الأبيض، أمام السرير، ثمة صورة بالألوان تمثل ورودًا، وفواكه، وأوراقًا، وأسفل هذه الصورة كُتب بأحرف كبيرة: بيلادون وجيسكيام. بعد ذلك، سيعلم أن الأمر يتعلق بنباتات معرورقة، لكن ما كان يهمه في تلك اللحظة هو تفكيك الحروف: بيلادون وجيسكيام، الكلمات الأولى التي تمكن من قراءتها. صورة أخرى، وسط النافذتين، لثور أسود يميل رأسه إلى الأمام ويحدق فيه بأسى. تحمل هذه الصورة عنوان: ثور أراضي هولستاين، بحروف أصغر حجمًا من حروف بيلادون وجيسكيام، وأكثر صعوبة على مستوى القراءة. لكنه تمكن من ذلك خلال أيام، كما أنه تمكن من نقل كل هذه الكلمات على دفتر رسائل كانت آني قد أهدته له.

- إذا أحسنت الفهم، دكتور، فهم لم يعثروا على أي شيء خلال تفتيشهم؟

- لا أعلم شيئًا. لقد قضوا الكثير من الأيام وهم يقلبون المنزل رأسًا على عقب. لا بد أن الآخرين قد خبأوا شيئًا ما هناك.

- ولا مقالات حول هذا التفتيش في صحف تلك الفترة؟

- لا.

مر بخاطر دراغان في تلك اللحظة مشروع سراب-ي. بفضل حقوق المؤلف للكتاب الذي لم يكتب منه سوى صفحتين أو ثلاث، سيشتري المنزل. سيختار الآليات الضرورية: مفكات البراغي، مطرقات، كلابات، وسيباشر

هو ذاته عملية تفتيش دقيقة خلال أيام وأيام. خلال ذلك، سيزيل الصالون والغرف وسيهشم المرايا لكي يرى ما تخفيه. سيبحث عن السلالم السرية والأبواب الخفية وسينتهي في الأخير بالعثور على ما أضاعه، والذي لم يُحدث بشأنه أي شخص.

سأل الدكتور فوسترات:

- لا بد أنك أتيت في الحافلة، أليس كذلك؟

- نعم.

نظر الدكتور إلى ساعته اليدوية.

- لا يمكنني للأسف الشديد أن أقلك في السيارة إلى باريس. تنطلق الحافلة الأخيرة نحو باب آسنيير خلال عشرين دقيقة.

في الخارج، سارا على طول شارع ليرميتاج. مرا أمام المبنى العالي من الإسمنت الذي احتل مكان السور المحيط بالحديقة، غير أن دراغان لم تكن لديه الرغبة لإثارة موضوع هذا السور الذي اختفى.

قال الدكتور:

- الضباب كثيف، هذا أوان الشتاء..

بعد ذلك سارا بصمت، الواحد ثم الآخر، الطبيب بشكل مستقيم جدًّا، متصلب جدًّا، هيئته كهيئة ضابط قديم في الخيالة. لا يذكر دراغان أنه سبق له أن سار على هذا النحو، في الليل، خلال طفولته، في شوارع سانت لو لا فوري، ما عدا مرة وحيدة، في أعياد رأس السنة، حينما اصطحبته آني إلى قداس منتصف الليل.

كانت الحافلة تنتظر، بينما هدير المحرك يتعالى. على ما يبدو، سيكون المسافر الوحيد.

أخبره الدكتور وهو يمد له يده:

- سعدتُ كثيرًا بالحديث إليك طوال الظهيرة. وسيسعدني أكثر أن أعلم جديد كتابك الصغير حول سانت لو.

حينما كان يهم بالصعود إلى الحافلة، أمسك به الطبيب من ذراعه.

- فكرت في شيء ما.. بشأن مستشفى الجذام، وكل أولئك الأشخاص الغريبين الذين تحدثنا بشأنهم. أفضل شاهد يمكن أن يكون الطفل الذي كان يقيم هناك. يجب العثور عليه.. ألا تظن ذلك؟

- سيكون ذلك عسيرًا، دكتور.

جلس في المقعد الخلفي تمامًا للحافلة وحدق عبر الزجاج خلفه. كان الدكتور فوسترات متسمرًا في مكانه، هناك، وكان ينتظر دون شك أن تتوارى الحافلة عن الأنظار. في أول منعطف لوح له بيده.

في مكتبه، قرر أن يعيد ربط الهاتف والمجيب الآلي بالتيار الكهربائي في حال إذا ما حاولت شنتال غريباي أن تتصل به. غير أن أوتوليني يقينًا، بعد عودته من كازينو شاربونييير، لن يتركها قيد أنملة. عليها أن تستعيد الفستان الأسود الموشى بطيور السنونو. كان معلقًا هناك، على ظهر الكنبة، كتلك الأشياء التي لا تريد أن تغادرك والتي تلاحقك طوال حياتك. نفس الشيء بالنسبة لسيارة الفولكسفاغن الزرقاء التي تعود إلى فترة شبابه، والتي كان عليه أن يتخلص منها خلال سنوات. لكن، كلما قام بتغيير سكنه، كان يجدها واقفة أمام المبنى الذي يقطن فيه، وقد استمر هذا مدة طويلة. لقد بقيت مخلصة له وكانت تلحق به أينما ذهب. غير أنه كان قد أضاع المفاتيح. وبعد ذلك، ذات يوم، اختفت، ربما في إحدى تلك المقابر الخاصة بالسيارات، بعد باب إيطاليا، في المكان حيث تم رسم الطريق السيار للجنوب.

كان يرغب في العثور على "العودة إلى سانت لو لا فوري"، الفصل الأول من كتابه الأول، غير أن بحثه ذهب أدراج الرياح. هذه الليلة، بينما كان يتملى أوراق الرينية في ساحة المبنى المجاور، قال لنفسه إنه مزق الفصل. لقد كان على يقين من ذلك.

كما أنه سبق أن حذف فصلاً ثانيًا: "ساحة بلانش"، كتبه في غمرة "العودة إلى سانت لو لا فوري". هكذا استأنف كل شيء من البداية وهو يراوده إحساس صعب بتصحيح انطلاقة خاطئة. ومع ذلك، فإن الذكريات الوحيدة التي يحتفظ بها عن هذه الرواية الأولى ترتبط بالفصلين المحذوفين، والتي شكلت بؤرة الكل، أو بالأحرى الدعامات التي تتم إزالتها ما أن ينتهي من الكتاب.

كان قد كتب الصفحات العشرين من "ساحة بلانش" في غرفة بالمبنى 11 من شارع كوستو، بفندق قديم. كان يقطن من جديد أسفل مونمارتر، خمس عشرة سنة بعد أن اكتشفه بسبب آني. في الحقيقة، فقد انتهى به المطاف هنا، حينما غادروا سانت لو لا فوري. ولهذا السبب يظن أنه سيكتب كتابه بسهولة أكبر إذا عاد إلى الأماكن التي عرفها برفقتها.

لا شك أن مظهرها تغير منذ ذلك الحين، لكنه بالكاد يدرك ذلك. أربعون سنة على ذلك، في القرن الواحد والعشرين، ذات زوال، في سيارة الأجرة، كان يقطع الحي صدفة. كانت السيارة قد توقفت في زحمة المواصلات، بركن نهج كليشي وشارع كوستو. خلال دقائق قليلة، لم يتعرف على أي شيء، كما لو فقد الذاكرة ولم يعد سوى غريب في مدينته الخاصة. لكن بالنسبة له لم تكن لهذا أي أهمية. غدت واجهات المباني ومفترقات الطرق، على مر السنوات، منظرًا داخليًّا انتهى بأن غطى على مظهر باريس الأكثر سلاسة ولونها الأصفر الغامق الذي يميز الحاضر. ظن أنه رأى، هناك على اليمين، علامة مرآب شارع كوستو، وكان سيطلب عن طيب خاطر من السائق أن يتركه هناك حتى يدخل، بعد أربعين سنة، إلى غرفته القديمة.

آنذاك، في الطابق الذي يرتسم أعلى الطابق الذي يتواجد فيه، بدأت الأعمال التي ستحول الغرف القديمة للفندق إلى شقق صغيرة. لكتابة كتابه بعيدًا عن طنين المطارق على الجدران، كان يلجأ إلى مقهى بشارع بوجي الذي يشكل زاوية مع شارع كوستو، والذي تطل عليه نافذة غرفته.

خلال الزوال، لم يكن هناك أي زبون في هذه المؤسسة المسماة لايرو، حانة بدل مقهى، إذا ما اعتبر المرء نجارتها الشفافة، سقفها المشكل من الصناديق، واجهتها من الخشب الشفاف أيضًا، وواجهة زجاجية يحميها نوع من الخشب المخرم. كان رجل أسمر في الأربعينيات ينتصب خلف المشرب ويقرأ صحيفة. خلال الزوال، كان يحدث له أن يتوارى عن الأنظار عبر سلالم صغيرة. أول مرة، نادى عليه دراغان عبثًا ليؤدي ثمن مشروباته. وبعد ذلك، اعتاد على هذه التغيبات ووضع له ورقة نقدية من فئة خمسة فرنكات على الطاولة.

كان عليه أن ينتظر مرور أيام قبل أن يوجه له الرجل الكلام. حتى الساعة، كان هذا الأخير يتجنبه عن عمد. كل مرة كان دراغان يطلب منه كوب قهوة، يتظاهر الآخر أنه لم يسمعه. وكان دراغان يندهش أن يراه في الأخير يشغل آلة القهوة. يأتي ليضع كأس القهوة على الطاولة دون أن يلقي إليه بنظرة. وكان دراغان يجلس في جوف الصالة، كما لو أنه هو الآخر ينشد النسيان.

ذات زوال حينما أنهى تصحيح صفحة من مسودته، تناهى إليه صوت صارم:

- إذن فأنت تقوم بحساباتك؟

هز رأسه. هناك وراء المشرب، ألقى له الآخر بابتسامة.

- تأتي في الوقت السيئ.. الزوال يكون المكان مقفرًا هنا.

سار نحو طاولته، دائمًا تعلو محياه تلك الابتسامة الساخرة، وقال:

- هل تسمح؟

سحب الكرسي وجلس قبالته.

- ماذا تكتب بالضبط؟

تردد دراغان في الجواب.

- رواية بوليسية.

هز الآخر رأسه وهو يتفرس فيه بنظرة ثقيلة.

- أقطن في المبنى الذي يوجد في الزاوية، لكنهم يقومون ببعض الأشغال وهناك الكثير من الضوضاء بحيث لا أتمكن من العمل.

- فندق بوجي العتيق؟ أمام المرآب؟

- نعم. وأنت، هل أنت هنا منذ مدة؟

اعتاد أن يغير مجرى الحديث حتى يتجنب أن يكون هو موضوع الحديث. كانت تتمثل طريقته في الجواب على سؤال بطرح سؤال آخر.

- كنت دومًا في الحي. قبل ذلك، كنت مسؤولا على فندق، على مسافة بعيدة قليلاً، شارع لافيريير.

هذه الكلمة، لافيريير، جعلت نبضات قلبه تتسارع. حينما غادر هو وآني سانت لو لا فوري ليأتوا إلى هذا الحي، كانا يقطنان كلاهما غرفة بشارع لافيريير. كانت تتغيب، بين حين وآخر، وكانت تعطيه النسخة الثانية من المفتاح. "إذا ذهبت للتجول، حذار أن تتيه". على ورقة مطوية على أربعة كان يحتفظ بها في جيبه، كانت قد كتبت: "6، شارع لافيريير"، بخط يدها الكبير.

قال دراغان بصوت باهت:

- كنت أعرف امرأة كانت تقيم هناك. آني آستروند.

نظر إليه الرجل باندهاش.

- إذن، لا بد أنك كنت صغيرًا جدًّا. هذا يرجع إلى حوالي عشرين سنة مضت.

- أنا، سأقول بالأحرى، خمس عشرة سنة.

- عرفت على وجه الخصوص أخاها بيير. إنه هو الذي كان يقيم في شارع لافيرييز. كان يتولى المرآب بالجوار، لكنني لم أعد أعرف عنه أي شيء منذ مدة.

- هل تتذكرها؟

- قليلاً.. لقد غادرت الحي في سن مبكرة جدًّا. حسب ما أخبرني به بيير، توجد تحت رعاية امرأة تملك علبة ليلية، بشارع بونتيو..

تساءل دراغان إذا لم تختلط عليه الأمور بشأن آني وحسبها امرأة أخرى. ومع ذلك، فإن صديقة لها، تدعى كوليت، كانت تأتي غالبًا إلى سانت لو لا فوري، وذات يوم، كانتا قد أخذتاه على متن السيارة إلى باريس، إلى شارع قريب من حدائق شون زيليزي حيث يقام سوق الطوابع البريدية. شارع بونتيو؟ كانتا قد دخلتا كلتاهما إلى مبنى. بينما بقي هو في انتظار آني في المقعد الخلفي للسيارة.

- هل تعلم ما حل بها؟

نظر إليه الرجل بشيء من الارتياب.

- لا. لماذا تسأل؟ هل كانت فعلا صديقة لك؟

- عرفتها خلال طفولتي.

- إذن، هذا يغير كل شيء.. هناك أمر..

استعاد ابتسامته ومال بجذعه نحو دراغان.

- خلال ذلك العهد، فسر لي بيير بأنها عانت من مصاعب، وبأنها قضت فترة في السجن.

* * *

قال له نفس الجملة التي سبق لبيران دو لارا، في ذلك المساء من الشهر الماضي حينما التقى به جالسًا، وحيدًا، على سطح المقهى، أن قالها له. "لقد دخلت السجن". كانت نبرة كل رجل مختلفة: مسافة إلى حد من الازدراء، بالنسبة لبيران دو لارا، كما لو أن دراغان أجبره على الحديث عن شخص لا ينتمي إلى عالمه؛ نوع من الألفة لدى الآخر، ما دام أنه كان يعرف "أخاها بيير"، وأن "دخول السجن" يبدو له شيئًا تافهًا. بسبب بعض زبائنه الذين يأتون، كما فسر لدراغان، "انطلاقًا من الساعة الحادية عشرة مساء؟"

فكر بأن آني كانت ستمده ببعض التفسيرات لو كانت ما تزال على قيد الحياة. لاحقًا، حينما نشر كتابه وحظي بفرصة لقائها من جديد، لم يطرح عليها أي سؤال بهذا الخصوص. لم يكن عليها أن تجيب. كما أنه لم يثر معها موضوع غرفة شارع لافيرييز، ولا الورقة المطوية على أربعة حيث كانت قد كتبت عنوانها. كان قد أضاع هذه الورقة. وحتى لو تمكن من الاحتفاظ بها خلال خمس عشرة سنة وعرضها عليها، لقالت: "لكن، صغيري جون، هذا ليس خط يدي على الإطلاق".

كان رجل لايرو يجهل سبب دخولها السجن. "أخوها بيير" لم يقدم له أي تفاصيل بهذا الخصوص. غير أن دراغان يذكر أنه عشية انطلاقهما من سانت لو لا فوري بدت متوترة، حتى إنها نسيت موعد اصطحابه الساعة الرابعة والنصف حينما غادر المدرسة، وكان قد عاد وحيدًا إلى البيت. لم يقلقه هذا حقًّا. كان الأمر بسيطًا، يكفي السير طوال الشارع، إلى الأمام. كانت آني تقوم باتصال هاتفي في الصالة. لوحت له بيدها وواصلت الحديث في الهاتف. في المساء، أخذته إلى غرفتها، وكان يشاهدها وهي تعبئ حقيبة بالملابس. كان يخشى أن تتركه وحيدًا في المنزل، لكنها أخبرته أنهما سيذهبان معًا في الغد إلى باريس.

في الليل، سمع أصواتًا في غرفة آني. كان قد تعرف على صوت روجي فانسون. بعد ذلك بقليل، كان صوت محرك السيارة الأمريكية يبتعد ليتلاشى في الأخير. كان يخشى أن يسمع انطلاق سيارتها هي. ثم خلد إلى النوم.

* * *

ذات نهاية زوال وهو يغادر لايرو بعد أن كان قد خط صفحتين من كتابه - كانت الأشغال في الفندق القديم تتوقف حوالي الساعة السادسة مساء - تساءل إذا ما كانت النزهات التي كان يقوم بها منذ خمس عشرة سنة خلت في غياب آني قد قادته إلى هنا. لا شك أنها لم تكن كثيرة، هذه النزهات، وأكثر قصرًا مما يذكر. هل تركت آني فعلاً طفلاً يتجول وحيدًا في هذا الحي؟ لقد كان العنوان المكتوب بخط يدها على الورقة المطوية على أربعة - تفصيل لا يمكنه أن يخترعه - الدليل على ذلك.

يذكر أنه سار طوال شارع رأى عند آخره لو مولان روج. لم يجرؤ على الخطو أبعد من التراب المكوم للنهج خشية أن يتيه. إجمالاً، كان يكفي أن يخطو بعض الخطوات حتى يجد نفسه في المكان حيث يتواجد الآن. وقد ولدت لديه هذه الفكرة إحساسًا غريبًا، كما لو أن الزمن تلاشى. حدث هذا منذ خمس عشرة سنة، كان يتجول وحيدًا، بالقرب من هذا المكان، تحت شمس شهر تموز، ونحن الآن نوجد في شهر كانون الأول. كل مرة كان يغادر لايرو، يكون الليل قد حل. غير أن المواسم والسنين كانت، بالنسبة له، تتداخل على حين غرة. قرر أن يسير حتى شارع لافيرييز - نفس الطريق كما في الماضي - إلى الأمام، دائمًا إلى الأمام. كانت الشوارع تقع على منحدر وبقدر ما كان يهبط، كان لديه اليقين بأنه يعود بالزمن إلى الوراء. كان الليل مضاء أسفل شارع فونتين، سيحل الصباح ومن جديد ستكون هناك تلك الشمس التي تميز شهر تموز. لم تكتب آني فقط العنوان على الورقة المطوية على أربعة، ولكن الكلمات التالية: حتى لا تتيه في الحي، بخط يدها الكبير، كتابة قديمة لم يعد ممكنًا تعلمها بمدرسة سانت لو لا فوري.

كان منحدر شارع نوترو دام دو لوريت حادًّا، كذلك المنحدر السابق. يكفي أن يطلق الواحد لنفسه العنان لكي ينزلق. إلى الأسفل قليلاً. إلى اليسار. مرة وحيدة، كلاهما، دخلا إلى غرفتهما حينما حل الليل. كان ذلك عشية انطلاقهما على متن القطار. كانت قد وضعت يدًا على رأسه أو على رقبته، حتى تطمئن إلى أنه يسير إلى جانبها. كانا يعودان من فندق تيراس الذي يوجد على مسافة أبعد من الجسر الذي يطل على المقبرة. كانا قد دخلا هذا الفندق، وكان قد تعرف على روجي فانسون، في كرسي، في أقصى البهو. جلسا معه. كانت آني وروجي فانسون يتحدثان معًا. نسيا وجوده. كان يستمع لهما دون أن يستوعب ما يقولانه. كانا يتهامسان. في لحظة ما، كان روجي فانسون يعيد الشيء ذاته على آني: "أن تستقل القطار"، وأن "تترك سيارتها في المرآب". لم تكن موافقة، لكنها في آخر المطاف انصاعت لأمره: "نعم، أنت على حق، سيكون ذلك أكثر

أمنًا". ثم استدار روجي فانسون نحوه وابتسم له: "خذ، هذا لك". ومد له بورق مقوى من الأزرق الغامق وهو يطلب منه أن يفتحه. "جواز سفرك". تعرف على نفسه في الصورة، إحدى تلك الصور التي كان قد التقطها في كشك الصور حيث كان، كل مرة، الضوء الباهر يمنعه من التركيز. كان بوسعه أن يقرأ على الصفحة الأولى اسمه الشخصي وتاريخ ميلاده، غير أن الاسم العائلي لم يكن اسمه هو، لقد كان اسم آسترواند. كان روجي فانسون قد أخبره بصوت صارم أن عليه أن يحمل الاسم ذاته "للشخص الذي يرافقه"، وقد كان هذا التفسير كافيًا بالنسبة له.

خلال العودة، كانت آني وهو يسيران على التراب المكوم للنهج. بعد المولان روج، تابعا السير على طول زقاق صغير، على اليسار، حيث تنتصب عند نهايته واجهة مرآب. كانا قد عبرا عنبرًا تفوح منه رائحة الظل والبنزين. بالداخل، توجد غرفة من الزجاج. ثمة شاب وراء مكتب، نفس الشاب الذي كان يتردد أحيانًا على سان لو لا فوري وكان قد اصطحبه، ذات زوال، إلى سيرك ميدرانو. كانا يتحدثان عن سيارة آني، التي يمكن رؤيتها، هناك، طوال الجدار.

كان قد غادر المرآب برفقتها، وكان الظلام قد حل، وكان يرغب في أن يقرأ كلمات العلامة المضيئة "المرآب الكبير لساحة بلانش"، هذه الكلمات التي كان يقرأها من جديد، خمس عشرة سنة بعد ذلك، وهو يميل بقامته على نافذة غرفته من المقاطعة 11 لشارع كوستو. كانت هذه الكلمات تنعكس على الجدار، المقابل لسريره، انعكاسات على شكل تعريشات، حينما أطفأ الضوء وحاول أن ينام. كان ينام باكرًا، بسبب الأشغال التي تستأنف الساعة السابعة صباحًا. كان من الصعب الكتابة بعد ليلة سيئة. بين النوم واليقظة، كان يسمع صوت آني، ينأى شيئًا فشيئًا، ولم يكن يفهم سوى جزء من الجملة: "... حتى لا تتيه في الحي...". عند اليقظة، في هذه الغرفة، ينتبه إلى أنه كان عليه أن يقضي خمس عشرة سنة ليقطع الشارع.

* * *

هذا الزوال من السنة الماضية، الرابع من كانون الأول 2012 - كان قد دون التاريخ في مذكرته - اشتدت حركة المرور وطلب من سائق سيارة الأجرة أن ينعطف إلى اليمين من شارع كوستو. كان قد انخدع حينما ظن أنه يرى من بعيد علامة المرآب، ما دام أن الأخير كان قد اختفى. كما أنه أيضًا، على نفس الرصيف، هناك واجهة النيون المشكلة من الخشب الأسود. من كلا الجانبين، بدت واجهات المباني جديدة، كما لو أنها مغطاة بصباغة أو بشريط أبيض من السلوفان كان قد غطى خدوشات وبقع الماضي. وفي الخلف، في العمق، كان لا بد من مباشرة عملية تحنيط انتهت بإفراغ ما يوجد بالداخل. شارع بوجي، جدار أبيض مكان نجارة وزجاج شارع لايرو، بهذا الأبيض المحايد، لون النسيان. هو الآخر، خلال أكثر من أربعين سنة، كان قد وضع لونًا أبيض على الفترة التي كان يكتب فيها كتابه الأول وعلى الصيف الذي كان يتنزه خلاله وحيدًا وبجيبه الورقة المطوية على أربعة: حتى لا تتيه في الحي.

* * *

هذه الليلة، عند مغادرة المرآب، لم يكن عليهما أن يغيرا الرصيف، هو وآني. لا بد أنهما مرا أمام النيون.

خمس عشرة سنة بعد ذلك، لا يزال النيون قائمًا. لم تكن لديه أبدًا الرغبة في الدخول إليه. كان يخشى كثيرًا أن يتأرجح داخل ثقب أسود. على أي، كان يبدو له أن لا أحد سيتجاوز العتبة. كان قد سأل صاحب اللايرو عن نوع العروض التي تقدم. "أظن أن أخت بيير عرفت بداياتها الأولى في سن السادسة عشرة. يبدو أن جميع زبائنها يقبعون في الظلام، مع بهلوانيين، وفرسان وراقصات عاريات برؤوس تشبه رؤوس الموتى". تلك الليلة، هل ألقت آني نظرة خاطفة نحو مدخل المكان الذي عرف "بداياتها" الأولى؟

كانت قد أمسكته من يده حينما كانا يقطعان الشارع. للمرة الأولى، يرى باريس ليلاً. لم يهبطا شارع فونتين، ذلك الشارع الذي كان من عادته السير على طوله بينما يتنزه وحده في النهار. كانت تقوده على طول التراب المكوم. خمسة عشر عامًا بعد ذلك، كان يحث الخطى فوق نفس التراب المكوم، خلال الشتاء، خلف الأكواخ المتنقلة التي أقاموها بمناسبة أعياد الميلاد. ولم يستطع أن يرفع نظره عن النيون بأضوائه البيضاء التي كانت تبعث له بدعوات وعلامات من جهاز مورس كانت تتلاشى شيئًا فشيئًا. كان من الممكن القول إنها تشع للمرة الأخيرة، وإنها لا تزال تنتمي إلى الصيف حيث وجد نفسه في الحي مع آني. كم من الوقت بقيا هناك؟ شهورًا، سنوات، كتلك الأحلام التي بدتْ لك طويلة والتي تدركُ، بسبب استيقاظ فظ، أنها لم تدم سوى دقائق معدودة؟

حتى شارع لافيرير، شعر بيدها تضغط على رقبته. كان لا يزال طفلاً قد يفلت من قبضتها ويعرض نفسه للاصطدام. أسفل السلالم، كانت قد وضعت سبابتها على شفتيها لتشير له أنه يجب التزام الصمت بينما هما يصعدان.

* * *

كان قد استيقظ مرات عديدة، تلك الليلة. كان ينام على كنبة في الغرفة ذاتها التي تنام فيها آني، بينما كانت هي في السرير الكبير. كانت حقيبتاهما موضوعتين عند قدم السرير، حقيبة آني الجلدية، وحقيبته، أصغر حجمًا، من الحديد الأبيض. استيقظت عند منتصف الليل وغادرت الغرفة. سمعها تتحدث في الغرفة المجاورة إلى رجل لابد أنه كان شقيقها، رجل المرآب. انتهى في الأخير إلى النوم. صبيحة الغد، باكرًا جدًّا، أيقظته وهي تداعب جبينه ثم تناولا الفطور برفقة أخيها. كانوا

يجلسون حول مائدة، وكانت تفتش في حقيبتها اليدوية لأنها كانت تخشى أن تكون قد فقدت الورق المقوى الأزرق الذي حمله روجي فانسون في بهو الفندق، "جوازه"، تحت اسم "جون آسترونـد". لكن لا، لقد كان موجودًا في الحقيبة اليدوية. لاحقًا، خلال فترة غرفة شارع كوستو، سيتساءل في أي لحظة فقد ذلك الجواز المزيف. لا شك في بداية المراهقة، في المرحلة التي طُرد فيها من داخليته الأولى.

كان شقيق آني قد قادهما إلى محطة ليون في السيارة. كان من الصعب السير على الرصيف أمام المحطة وبداخلها في الردهة الكبيرة بسبب الأعداد الكبيرة من الناس. كان شقيق آني يحمل الحقائب. قالت آني إنه اليوم الأول من أيام العطل الدراسية الأخيرة. انتظرت في كشك لتأخذ تذاكر القطار، وقد بقي هو مع أخ آني الذي كان قد وضع الحقائب على الأرض. كان يجب أخذ الحيطة حتى لا يدفعك الأشخاص، وحتى لا تلقي بك عربات الحمالين إلى الأرض. كانا قد تأخرا، وهكذا فقد ركضا حتى الرصيف. كانت تضغط على معصمه بشدة حتى لا يتيه وسط الزحام، وكان شقيقها يلحق بهما محملا بالحقائب. صعدا في أولى العربات، بينما كان شقيق آني خلفهما. الكثير من الناس في الممر. وضع أخوها الحقيبتين عند مدخل العربة وعانق آني. ثم ابتسم له وهمس له في أذنه: "تذكر جيدًا.. اسمك الآن هو جون آسترونـد.. آسترونـد". وبالكاد كان لديه الوقت لهبوط القطار إلى الرصيف وأن يلوح لهما بيديه. بدأ القطار في التحرك. بقي مكان فارغ في إحدى المقصورات. "اجلس هناك، أخبرته آني. أنا، سأبقى في الممر". لم يرد أن ينفصل عنها، أدخلته إلى المقصورة وهي تمسك بكتفه. كان يخشى أن تتركه هناك، لكن مكانه كان بجانب باب المقصورة، ويمكنه مراقبتها. لم تبرح مكانها، كانت واقفة في الممر، وبين الفينة والأخرى، كانت تلتفت برأسها لتبتسم له. أشعلت سيجارة بواسطة ولاعتها الفضية، وضغطت جبينها على الزجاج، ولا بد أنها كانت تتأمل المنظر. خفض رأسه حتى لا تلتقي نظراته بنظرات المسافرين الآخرين في المقصورة. كان يخشى أن يطرحوا عليه أسئلة، كما يفعل الكبار غالبًا حينما يلمحون طفلاً بمفرده. كان سيرغب في النهوض ليسأل آني إذا ما كانت حقائبهما لا تزال في مكانها، في بداية العربة، وإذا لم يكن هناك احتمال سرقتها. فتحت باب المقصورة، ومالت نحوه وقالت له بصوت خفيض: "سنذهب إلى عربة الطعام. يمكنني أن أجلس معك". بدا له أن مسافري المقصورة كانوا يراقبونهما. وتتالت الصور، دون انتظام، كفيلم تآكل شريطه. سارا على طول ممر العربات، وكانت تمسك بمرفقه. كان يخاف كلما انتقلا من عربة إلى أخرى بين الممرين حيث الاهتزاز قوي بحيث يمكن للمرء أن يقع. ضغطت على ذراعه حتى لا يفقد التوازن. جلسا الواحد قبالة الآخر، في طاولة بعربة الأكل. عن طريق الحظ، كانت الطاولة لهما وحدهما، غير أنه لم يكن هناك أي أحد في الطاولات الأخرى. هذا يختلف عن كل تلك العربات التي عبراها منذ قليل، والتي كانت ممراتها ومقصوراتها مليئة. مررت يدها على وجنته وقالت له إنهما سيبقيان في طاولتهما لأطول مدة ممكنة، إذا لم يزعجهم أي أحد حتى نهاية السفر. ما كان يقلقه أمر الحقيبتين اللتين تركاهما هناك، عند بداية العربة الأخرى. كان يتساءل إذا لم يكونا قد أضاعاهما أو أن شخصًا ما قام بسرقتهما. لا بد وأنه كان قد قرأ قصة من هذا الصنف في أحد كتب الخزانة الخضراء التي كان روجي فانسون قد حملها له ذات يوم في سان لو لا فوري. ولا بد أنه بسبب ذلك كان حلم يلاحقه كل حياته: حقائب يضيعها المرء على متن قطار، أو أن القطار ينطلق وهو يحمل حقائبك وتبقى أنت على الرصيف. لو كان بوسعه أن يذكر كل أحلامه، اليوم، لعد المئات ثم المئات من الحقائب

الضائعة.

"لا تقلق، صغيري جون". أخبرته آني وهي تبتسم. زرعت هذه الكلمات الطمأنينة بين جنبيه. كانا لا يزالان جالسين في نفس المكانين بعد الفطور، غادر الجميع عربة الأكل. يتوقف القطار في محطة كبيرة. سألها إذا ما كانا قد وصلا. ليس بعد، أخبرته آني. شرحت له أن الساعة لا بد أن تشير إلى السادسة مساء، وأن القطار دائمًا ما يصل إلى هذه المدينة في هذه الساعة. بعد سنوات على ذلك، كان غالبًا ما يستقل القطار ذاته، وكان يعلم اسم المدينة التي يصل إليها المرء في الشتاء مع هبوط الليل. ليون. أخرجت من حقيبتها اليدوية لعبة البطاقات، وكانت ترغب في أن تعلمه سر اللعبة، لكنه لم يفهم شيئًا.

لم يسبق له أبدًا أن قام بسفر طويل كهذا. لم يأت أحد ليزعج راحتهما. "لقد نسوهما"، قالت له آني. وكل الذكريات التي بقيت عالقة في ذهنه يتخللها النسيان ما عدا بعد الصور الأكثر وضوحًا حينما ينحرف الشريط وينتهي بأن يتوقف عند إحداها. كانت آني تفتش في حقيبتها اليدوية، ومدت له الورق المقوى الأزرق الغامق - جواز سفره - حتى يحفظ جيدًا اسمه الجديد. في أيام قليلة، سيقطعون "الحدود" للذهاب إلى بلد آخر، ثم إلى مدينة تدعى "روما". "احفظ جيدًا هذا الاسم: روما. وأقسم لك أنه في روما لن يعثروا علينا. لدي أصدقاء هناك". لم يفهم جيدًا ما قالته، لكن ما دام أنها انفجرت في الضحك، فقد أخذ يضحك، هو الآخر. قامت بتشكيلة جديدة للأوراق، وشاهدها تضع الأوراق على شكل صفوف على الطاولة. توقف القطار من جديد في محطة كبيرة، وسألها إذا ما كانا قد وصلا. لا. أعطته لعبة الورق، وكان يستمتع وهو يصنفها حسب الألوان. بستوني. مربع. نفل. قلب. أخبرته بأن الوقت قد حان لإحضار الحقائب. سارا في الممر في الاتجاه المعاكس وكانت تمسك به تارة من رقبته وتارة أخرى من ذراعه. كانت الممرات والمقصورات فارغة. أخبرته أن جميع المسافرين قد نزلوا قبلهم. قطار شبح. سيعثرون على حقائبهم في المكان ذاته عند مدخل العربة. كان الظلام قد حل وكانا على رصيف مهجور لمحطة صغيرة جدًّا. سارا على طول ممشى محاذٍ لخط السكة الحديدية. توقفت أمام باب محفور في جدار سور وأخرجت مفتاحًا من حقيبتها اليدوية. هبطا طريقًا في الظلام. منزل كبير أبيض أضواء نوافذه مضاءة. دخلا إلى غرفة تشع نورًا وأرضيتها من الأبيض والأسود. لكن، في ذاكرته، يتداخل هذا المنزل مع منزل سان لو لا فوري، لا شك، بسبب المدة القصيرة التي قضاها هناك برفقة آني. هكذا، بدت له الغرفة التي كان ينام فيها هناك مماثلة لتلك الغرفة في سان لو لا فوري.

بعد مرور عشرين سنة، وجد نفسه في لاكوت دازير، وظن أنه تعرف على المحطة الصغيرة والممشى الذي كانا قد سارا على طوله بين السكة الحديدية وجدران أسوار المنازل. إيز سير مير. حتى إنه طرح بعض الأسئلة على رجل ذي شعر رمادي أقام مطعمًا على الشاطئ. "لا بد أن هذه هي الفيلا العتيقة لأومبريكو على رأس إيستيل.." دون الاسم من باب الصدفة، غير أنه حينما أضاف الرجل: قام سيد يدعى فانسون بشرائها خلال الحرب ثم وقعت تحت الحجز. الآن، تم تحويلها إلى فندق. أصيب بالهلع. لا، لن يرجع إلى الأماكن للتعرف عليها. يخشى كثيرًا أن الحزن،

والذي بقي مطمورًا إلى الآن، قد يتمدد وينتشر عبر السنوات كما لو على طول حبل بيكفورد.

لن يذهبوا أبدًا إلى الشاطئ. في الزوال، سيبقون في الحديقة، حيث يطالعهم منظر البحر. كانت قد وجدت سيارة في مرآب المنزل، سيارة أكبر حجمًا من سيارة سان لو لا فوري. في المساء، أخذته لتناول العشاء في المطعم. قادا على طول طريق الكورنيش. على متن هذه السيارة، كانت قد أخبرته أنهما سيعبران "الحدود" وسيذهبان حتى "روما". في اليوم الأخير، كانت غالبًا تغادر الحديقة لتجري اتصالاً هاتفيًّا، وكانت تبدو قلقة. كانا يجلسان جنبًا إلى جنب أسفل شرفة، وكان يشاهدها وهي تقوم بتوزيع الأوراق. مالت برأسها وقطبت جبينها. كانت تبدو شاردة تمامًا قبل أن تضع بطاقة عقب بطاقات أخرى، لكنه لمح دمعة تنساب على وجنتها، صغيرة جدًّا بحيث يستحيل رؤيتها، كما ذلك اليوم، بسان لو لا فورين حيث كان في السيارة إلى جانبها. في الليل، تقوم باتصال هاتفي في الغرفة المجاورة، لا يسمع سوى صوتها وليس الكلمات. في الصباح، توقظه أشعة الشمس التي تخترق غرفته من خلال الستائر وتصنع بقعًا ليمونية على الجدار. في البداية، لم يكن هناك تمامًا ما يذكر، صرير العجلات على الحصى، صوت محرك ينأى، وأنت بحاجة لمزيد من الوقت حتى تنتبه إلى أنه لم يبق أي أحد آخر في المنزل سواك.

Notes

[1←]

باتريك موديانو، الأفق، ترجمة توفيق سخان، منشورات ضفاف، الاختلاف، 2014، ص: 28 - 29.

[2←]

باتريك موديانو، حتى لاتتيه في الحي، ترجمة توفيق سخان، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، 2014.

[3←]

Hannah Arendt, Men in Dark Times, New York, Harvest, 1955, p. ix

[4←]

Taoufiq Sakhkhane, Spivak and Postcolonialism : Exploring Allegations of Textuality, London & New York: Palgrave Macmillan, 2012, p. 13

[5←]

Ihab Hassan, ‘Pluralism in Postmodern Perspective,’ Critical Inquiry 12, (Spring 1986), pp. 504-8

[6←]

Dervila Cooke, Present Pasts, Patrick Modiano's (Auto) Biographical Fictions, Amsterdam/New York : Editions Rodopi, 2005, p. 13

[7←]

Dervila Cooke, p. 17

[8←]

أنظر خطابه الأخير بمناسبة تسلمه جائزة نوبل للآداب.

[9←]

بوفون، جورج لويس لوكليرك (1707-1788)، كاتب وعالم وفيلسوف فرنسي، من مؤلفاته التاريخ الطبيعي.

[10←]

فابريزيو لوبو رواية من تأليف الكاتب الإيطالي كارلو كوشيولي. صدرت الرواية أول مرة بباريس سنة 1952 ولم تنشر في إيطاليا إلا سنة 1978 بعد أن قام مؤلفها بترجمتها، وهي تحكي قصة اكتشاف الشخصية الرئيسية لشذوذها.

[11←]

كوندي (1530-1562) القائد البروتستانتي الأول خلال الحروب الدينية الثلاث، وقد اغتيل على أرض المعركة.

[12←]

مستشفى الجذام.

[13←]

يتعلق الأمر بحادث احتيال وقع سنة 1952 حيث إضافة إلى التجارة غير المشروعة في السجائر المهربة، كان الهدف هو الحصول على التعويضات. وقد كان لهذا الحادث تداعيات كثيرة.

المحتويات

نصف عنوان الكتاب	2
ستاندال	8
ما بين المبتدأ والخبر	9
Notes	117